

التصحيح اللغوي في بلاد الشام في القرن العاشر الهجري
ابن الحنبلي رائداً

إعداد الدكتور:

محمد بن عبد العزيز العميريني

أستاذ النحو والصرف المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية-الرياض

١٤٣٣هـ-٢٠١٢م

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم....وبعد:

إن موضوع اللحن في اللغة طالما شغل النحويين ، قديماً وحديثاً ودارت وتدور في فلكه أبحاث النحو كافة قريباً وبعداً .

وهذا البحث يتنازعه فكرتان رئيستان وهما : الصحيح ، والفصيح ، وما حدث بينهما من خلط في التطبيق ، وليس المفهوم ، وقد حاولت هنا تقديم تناول جديد لقضية اللحن في اللغة ، يشترك فيه النحويون المعنيون بالصحيح ، والبلاغيون المعنيون بالفصيح ، لتدعيم نظرة أو نظرية نحوية لحمتها وسداها المعنى والقاعدة أو نحو المعاني ومعاني النحو .

وأذكر بأن الدراسات اللغوية في هذا المضمار منحصرة في اتجاهين ، الاتجاه الأول هو اتجاه النقل ، والثاني هو اتجاه النقد . و هو ما يسميه بعضهم النقد اللغوي بين التحرر والجمود .

هذا المنهجان منهج النقل ومنهج النقد يمثلان حركة متصلة للبحث اللغوي عامة، ولا أغالي إذا قلت إنه يمثل منهجاً أيضاً في التفكير .

ونتيجة لهذا المنهجين في البحث والتفكير شكل التأليف في اللحن اللغوي حركة مواراة في التصحيح وتصحيح التصحيح ، حركة جدلية دووية حتى أمست ظاهرة فريدة في المؤلفات العربية ، وصارت فناً برأسها بلغت حدّاً من الكثرة جعلها صنفاً خاصاً قد فاق التأليف في بعض العلوم ، وتكفي نظرة إلى عدد قوائم الإحصاء أو (البابلوغرافيا) التي أعدها جمهرة من المستشرقين والمحدثين لتثير الدهشة من سعة هذا التراث .

وقد قسمت البحث بمبحثين ، الأول في ماهية اللحن ، وما يدور حوله من الآراء والرؤى .

والثاني جهود ابن الحنبلي في التصحيح اللغوي باعتباره ممثلاً رائداً للتنقية اللغوية في بلاد الشام في القرن العاشر .

أما لماذا اخترت ابن الحنبلي دون سواه ، فلغنايته الفائقة بدرة الغواص ، أشهر كتب التصحيح اللغوي منذ القرن السادس الهجري ، وحتى يومنا هذا ، فهو مدار التصحيح اللغوي من يوم نشأته إلى يومنا هذا ، إما تأييداً لما فيه ، أو معارضة لمحتواه ، وهو أحد أربعة كتب قام عليها هذا الفن ، فن التصحيح اللغوي قامت حول هذه الأربعة دراسات، ضخمة كثيرة، بلغت عشرات الرسائل، ما بين شرح، واختصار، وتهذيب، وترتيب وتكملة، ونقد ودفاع، ونظم، وشرح للنظم، هذه الكتب هي: إصلاح ابن السكيت، وأدب ابن قتيبة، وفصيح ثعلب، ودرة الحريري .

وتبرز من بينها درة الغواص أغزرها مادة ، وأكثرها تداولاً بأيدي العلماء والمتعلمين .

أما كتب ابن الحنبلي فهي تهتم اهتماماً بالغاً بدرة الغواص ، ويبرز من بينها كتابه : عقد

الخلاص ، وهو يمثل طليعة الكتب التي ردت على درة الغواص ، بعد حواشي ابن بري ، وابن ظفر .
وابن الحنبلي من أكثر علماء الشام ، ولعله الوحيد بينهم الذي كانت له عناية بالتصحيح اللغوي ، حتى وفاته ، وله عناية بدرة الغواص ، ظهرت في ثلاثة من مؤلفاته ، وهي سهم الأحواز في وهم الألفاظ ، وبحر العوأم ، وعقد الخلاص .

كما أن الفترة الزمنية التي نشأ فيها في القرن العاشر الهجري تمكننا من التعرف على ما آلت إليه الأمور ، وتوقفنا على التطور الحاصل في محاولة التصحيح التي قام بها الحريري في القرن السادس ، والتي كانت موجودة قبله في القرن الثاني تقريباً .

إن يستغرق هذا البحث مدة زمنية ما بين القرن الثاني والقرن العاشر الهجريين ، ومن أهم المشاهد التي يجب رصدها أن مسائل الصحيح اللغوي خلال هذه المدة الطويلة من عمر العربية تكاد تكون واحدة ، ولم يزد عليها إلا قدر قليل .

كما أن مناهج المخطئين والمصوبين تكاد تكون واحدة.

أيضاً يمكن القول إنه كانت هناك حركة مواراة من التصحيح ، وتصحيح التصحيح ، كانت الغلبة فيها غالباً لمنهج تصحيح التصحيح .

يطرح هذا البحث فكرة التقارب بين البصريين والكوفيين في التصحيح اللغوي ، وريادة الكوفيين لهذا الفن ، وتبعية البصريين ، و من غلب عليهم الاتجاه البصري للكوفيين ، وهو أمر جدير بالتنبيه له ، ورصده في سجل الدراسات اللغوية والنحوية .

ولعل أهم ما يقدمه البحث هو أن تلك الملاحظات اللغوية في أغلبها كانت مبنية على الفصيح ، وليس الصحيح ، وهذا عند من يقدسون نظرة التصحيح ، في مقابل من يقومون بتصحيح التصحيح . والحقيقة أنه ليس هناك خلاف حقيقي بين الفريقين ، فقد يكون الأمر فصيحاً ؛ لأنه خارج عن الخلاف ، كثير مطرد في الكلام ، ومع ذلك قد يكون صحيحاً ، لكنه متنازع فيه ، ويحتل مرتبة دون مرتبة الفصيح ، ومثل هذا يصح أن يطلق عليه إنه صحيح ، وليس فصيحاً ، والخلط بين هذين المفهومين هو ما حدث بين فريقَي التصحيح ، وتصحيح التصحيح ، أو الفصيح ، وتصحيح الفصيح . على ما يقول : " ليس ينبغي أن يُطلق على شيء له وجه في العربية قائم - وإن كان غيرد أقوى منه - أنه غلط" (١)

أخيراً أنبه إلى أن هذا الفن من العلوم العربية تكاد العربية تنفرد به دون غيرها من لغات الأمم الحية والميتة .

الباحث

اللحن : المصطلح والدلالة

مصطلح اللحن من المصطلحات الرائجة الدلالة، فهو يطلق على أشياء متنوعة يبدو للوهلة الأولى أن لا رابط بينها، فهو: الخطأ في الإعراب، واللغة، والقناء، والفطنة، والتعريض والمعنى، والميل^(١).

بل إنه يطلق على الشيء ونقيضه، جاء في النهاية لابن الأثير: "واللحن: اللغة والنحو. واللحن أيضاً: الخطأ في الإعراب، فهو من الأضداد، قال أبو الطيب: "واللحن حرف من الأضداد يقال للخطأ: (لحن)، وللصواب: (لحن)"^(٢) وكان ابن الأعرابي يقول: إن اللحن بالسكون: الفطنة والخطأ سواء، وعامة أهل اللغة في هذا على خلافه. قالوا: الفطنة بالفتح. والخطأ بالسكون. وقال ابن الأعرابي: واللحن أيضاً بالتحريك: اللغة"^(٣).

وقد أبان عن معاني هذه اللفظة القدماء^(٤)، وفصل في مفهومها المحدثون^(٥) وجميعها تلتقي في أصل واحد حدده أحمد بن فارس بمفهوم "إمالة شيء من جهته"^(٦) على أن السبيل في تحديد معنى من دون غيره هو السياق المعين في تحديد إحدى الدلالات غيرها.

والحقيقة أن الجذر (لحن) له بناءان يدل أحدهما على إمالة شيء من جهته، ويدل الآخر على الفطنة والدكاء. فأما اللحن، بسكون الحاء، فإمالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية"^(٧). "واللحن واللحد: أخوان في معنى الميل عن جهة الاستقامة. يقال: لحن فلان في كلامه إذا مال عن صحيح المنطق ومستقيمه بالإعراب"^(٨).

وعلى هذا فإن اللحن في اللغة "صرف الكلام عن سننه الجاري عليه، إما بإزالة الإعراب أو التصحيف وهو المذموم، وذلك أكثر استعمالاً، وإما بإزالتة عن التصريح وصرفه بمعناه إلى تعريض

(١) انظر : مادة (ل ح ن) في لسان العرب و التاج .

(٢) الأضداد ، لأبي الطيب اللغوي ، ص ٢٣٨ .

(٣) النهاية لابن الأثير ٤ / ٢٤١ .

(٤) البيان والتبيين : ١ : ١٦٣ - ١٦٤ و ينظر مادة (لحن) في معجم مقاييس اللغة : ٥ : ٢٣٩ - ٣٤٠ و اللسان : ٥ :

٤٠١٣ - ٤٠١٥ و تاج العروس : ٣٦ : ١٠٠ - ١٠٦ و القاموس المحيط : ١١٣٤ .

(٥) العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب : ٢٣٥ - ٢٤٦ و المدخل الى مصادر اللغة العربية : ١٤٧ - ١٥٠

ولحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : ١٩ - ٢٨ ولحن العامة والتطور اللغوي : ٩ - ٢٩

(٦) معجم مقاييس اللغة (لحن) : ٥ : ٢٣٩ .

(٧) المقاييس ، مادة (ل ح ن) .

(٨) الفائق في غريب الحديث ٣ / ١٩٤ .

وفحوى، وهو محمود عند أكثر الأدباء من حيث البلاغة " (١).

ولهذا اللحن ثلاثة مستويات: مستوى لغوي، ولفظي، ونحوي، فـ " اللحن: الخروج عن حد الصواب في إحدى الدلالات الثلاث: اللغوية واللفظية والنحوية، فاللغوية ما كان خاصاً بمدلول الكلمة، و اللفظي ما كان خاصاً بنطقها، والنحوي ما كان خاصاً بموقع الكلمة من الكلام... وهذا اللفظ (اللحن) بدلالاته الثلاث اللغوية و اللفظية – الناتجة عن الخطأ – و النحوية نشأت له دلالاته في وقت متأخر.

فدلالاته الأولى التي كانت له، كما تدل شواهد الاستعمالية الأولى، كانت بمعنى الميل، فيقال: لحن إلى كذا، أي مال إليه، وكذا كانت كل مشتقات هذا الأصل تدل على الميل والتحول عن حال إلى حال، وليس ثمة صواب ولا خطأ، ولا حق ولا باطل" (٢).

" واللعن في العربية راجع إلى هذا؛ لأنه العدول عن الصواب؛ لأنك إذا قلت: (ضربَ عبدُ الله يزيدُ) لم يدر أيهما الضارب وأيهما المضروب فكأنك قد عدلت عن جهته، فإذا أعربت عن معنك فهم عنك، فسُمي اللحنُ في الكلام لحناً لأنه يخرج على نحوين وتحت معنيين، ويُسمى الإعرابُ نحواً؛ لأن صاحبه ينحو الصواب أي يقصده " (٣).

اللعن والخطأ

من خلال ما سبق يتضح أن اللحن يُرادفُ الخطأ، جاء في الصحاح: " اللَّحْنُ: الخطأُ في الإعراب. يقال: فلان لَحَانٌ وَلَحَانَةٌ، أي كثير الخطأ " (٤). لكن ثمة فرق بين اللحن و الخطأ نبه عليه العسكري قائلًا إن: (اللحن) صرفك الكلام عن جهته، ثم صار اسماً لازماً لمخالفة الإعراب، و (الخطأ) إصابتُ خلاف ما يقصد.

وقد يكون في القول والفعل، و (اللحن) لا يكون إلا في القول، تقول: (لحن في كلامه) ولا يقال (لحن في فعله) كما يقال (أخطأ في فعله) إلا على استعارة بعيدة " (٥).

وبتتبع البعد التاريخي لكلمة (لحن) نجد أنها ترددت في العصر الإسلامي في روايات نقلتها كتب اللغة (٦) قاصدة معنى اللحن الذي نحن بصده في الخروج عن قواعد اللغة، وطالما حصل اللحن في العصر الإسلامي وكانوا على معرفة به ويفتخرون بمجانبتهم إياه فلا بد من أنه وقع في العصر الجاهلي أو على أقل تقدير قبيل الإسلام ؛ لأن مائلاً من روايات يدل دلالة غير مباشرة على حدوث ذلك في الجاهلية وإن لم ينقل ذلك ، فالعلاقة بين الزمن وشيوع اللحن تكاد تكون طردية

(١) المفردات للراغب الأصفهاني، ص ٤٩٩ .

(٢) اللحن في اللغة ، د. المطوع، ص ١٢٨ .

(٣) مجمع الأمثال ٢/ ٢٥٦ .

(٤) الصحاح مادة (ل ح ن) .

(٥) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ٤٦٢ . ٢٠٢

(٦) لبين والتبيين : ١ : ٤٦ – ١٢٧ واختصاص : ٢ : ٨ . و حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث : ١٠ : ١٤ .

فكلما امتد الزمن أو تأخر نجد شيوع اللحن والخروج عن القاعدة في تزايد ذلك بسبب تعاقب الاجيال وكثرة الاستعمال واتساع رقعة الدولة الإسلامية .

أما في القرن الثاني فكتاب الكسائي (١٨٩هـ) (ما تلحن فيه العوام) خير دليل على انتشار الظاهرة وحاجتها الى العلاج مما دعا اللغويين الى التصدي لها بالمقاومة .

وفي القرن الثالث ينقل لنا ابن قتيبة (٢٧٦هـ) نصاً يصف به كثرة اللحن والتصحيف ووضع الالفاظ غير موضعها وتزايد هذه الظواهر بامتداد الزمن يقول : " فلما رأيت هذه الشأن كل يوم الى نقصان وخشيت ان يذهب رسمه ويعفو أثره ؛ جعلت لها خطأ من عنايتي ، وجزءاً من تأليفي ؛ فعملت لمغفل التأديب كتاباً خفافاً في المعرفة ، وتقويم اللسان واليد " (١) .

ويطالعنا الزبيدي (٣٧٩هـ) في القرن الرابع بكتابه (لحن العوام) كاشفاً عن انتشار اللحن وطغيانه على العامة والخاصة من الشعراء والكتاب قائلأ : " مما قد أفسدته العامة عندنا ، فأحالوا لفظه ، أو وضعوه غير موضعه ، وتابعهم على ذلك أكثر الخاصة ، حتى ضمنته الشعراء أشعارهم ، واستعمله جلّة الكتاب ، وعليه الخدمة في رسائلهم ، وتلاقوا به في محافلهم " (٢) وتتفاقم ظاهرة اللحن أخذة بالزيادة والاتساع كلما مرت السنون " حتى صار التكلم بالإعراب عيباً ، والنطق بالكلام الفصيح عيباً " (٣) .

لحن العامة ولحن الخاصة

يتبادر إلى الذهن أن كلمة العامة يراد بها أصحاب الطوائف والمهن ممن ليسوا مشغولين بالعلم، أما غيرهم من العلماء فهم الخاصة: " و العامي من الكلام ما نطق به العامة على سنن الكلام العربي والعامية: لغة العامة و هي خلاف الفصحى " (٤) .

وقد قال الجاحظ في أثناء كلامه: " ولأهل المدينة السنن ذلقة، وألفاظ حسنة، وعبرة جيدة، واللحن في (عوامهم) فاش، وعلى من لم يتظر في النحو منهم غالب " (٥) " وإذا سمعتموني أذكر (العوام) فإني لست أعني الفلاحين والحشوة (٦) والصنّاع والباعة " (٧) .

وللدكتور عبد العزيز الأهواني رأي في تحديد مفهوم (العامة و الخاصة) في كتب المؤلفين

في

اللحن اللغوي، فهو يرى، أن المقصود بالعامة في تلك المصنفات هم المثقفون الذين تسربت

(١) أدب الكاتب : ١٢ .

(٢) لحن العوام : ٦٢ .

(٣) صبح الأعشى : ١ : ٢١١ .

(٤) المعجم الوسيط ، مادة (ع م ع) .

(٥) البيان والتبيين / ١ / ١٤٦ .

(٦) في اللسان ، مادة (ح ش و) : حشوة الناس ردائهم .

(٧) البيان والتبيين / ١ / ١٣٧ .

إليهم أخطاء من الدهماء ^(١) أو من تصحيقات النساخ، ومن بين هؤلاء شعراء وكتاب ^(٢).

وهذا منه سديد؛ لأنه بتصفح عناوانات المصنفات في اللحن يجد أغلبها يحمل مصطلح (العامة) مع أن محتواها يكون في لحن الخاصة الذين تسرب إليهم شيء من لحن العامة.

يصدق هذا مثلاً على: ما تلحن فيه العامة المنسوب للكسائي، وخير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام لعلي بن بالي القسطنطيني، وهو من الكتب التي عنت بـ درة الغواص للحريري، ومعلوم أن درة الغواص في أوهم الخواص، لكن هذا الكتاب جاء يحمل لفظ (أغلاط العوام)، مما يدل على المساواة بين المصطلحين (العامة و الخاصة) عند كثير من مصنفي اللحن اللغوي.

ومثل هذا تأليف الزبيدي، كتاب (لحن العوام) مع أن الكتاب يبحث في أخطاء الخاصة، " غير أن هناك ملاحظة مهمة ينبغي الإشارة إليها، وهي إذا كان الخاصة هم المقصودون من هذا الكتاب فإن الألفاظ التي تعالج والتي طرأ عليها التحول والتبدل ليست من الألفاظ الغريبة والمغيرة في فصاحتها في أكثر الأحيان، فالكتاب موجه أو يقصد به أخطاء الخاصة من الناس، والخاصة ألفاظهم مختارة. غير أنه يعالج أيضاً الألفاظ السوقية والعامية. وقد تنبه أبو بكر إلى أن مثل هذا الاعتراض وارد فقال ^(٣): " ولعل طاعناً يطعن في كتابنا هذا بما ذكرناه من الكلام السوقى، واللفظ المستعمل العامي، جهلاً منه أن الفساد إنما يقع في المستعمل على الألسنة، وأن الوحشي مصون عن التغير والإحالة بقلّة استعماله، وجهل عوام الناس به " ^(٤).

بل إن ما جاء من المصنفات في اللحن يحمل لفظ (الخاصة) ومشتقاتها قليل جداً، مقارنة بما يحمل لفظ (العامة) أو إحدى مشتقاتها، مع أن المحتوى — كما ذكرت سابقاً — يكون في غالب الأمر من لحن الخاصة.

ولم أجد مما يحمل لفظ (الخاصة) ومشتقاتها سوى (لحن الخاصة) للعسكري أبي هلال ^(٥). ودرة الغواص في أوهم الخواص للحريري وبعض الشروح عليه، مثل: تهذيب الخواص من درة الغواص ^(٦) للحريري، تأليف ابن منظور صاحب لسان العرب، وكشف الطرة للأكوسي ^(٧).

(١) في اللسان، مادة (د ه م) : " الدهماء الجماعة من الناس ".

(٢) انظر : لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، د. مطر، ص ٣٥.

(٣) انظر : لحن العوام لأبي بكر الزبيدي، ص ٩.

(٤) الحركة اللغوية في الأندلس، أثير حبيب، ورقة ١٠٩. رسالة (دكتوراه) الجامعة الأمريكية ببيروت.

(٥) انظر : كشف الطنون، ٣/ ١٥٨٤، وهديّة العارفين، ١/ ٢٧٣.

(٦) انظر : كشف الطنون ١/ ٣٤١.

(٧) انظر : المرجع السابق ١/ ٤٥٩.

تلقى النحويين للحن العامة والخاصة

بمطالعة قوائم كتب التصحيح اللغوي^(١) يظهر أن أقدم كتاب ألف في هذا الشأن مخصصاً لهذا الغرض هو: ما تلحن فيه العامة للكسائي (ت ١٨٩ هـ)، وعلى هذا فإن الكوفيين سبقوا البصريين في التأليف في هذا الفن، وأتى البصريون في هذا الأمر تلامذة لهم.

ومن الغريب أن البصريين لم يخالفوا الكوفيين — مع اختلاف أصول المدرستين السماعية، والقياسية — في مسائل الكتاب، ولا في مناهج التخطئة والتصويب، وكان الكوفيون أقرب إلى منهج البصريين في هذا الأمر.

وربما كان هذا؛ لأن ذلك الفن من التأليف لم يكن مراداً به التصحيح اللغوي بقدر ما أريد به أن يكون رسالة هادية مرشدة للمجمع عليه، البعيد عن التنازع فيه، فهي كتب أو رسائل تكتب للفصيح من الكلام، وما أحرى الكلام — عند هؤلاء بصريين وكوفيين — أن يكون مجمعاً عليه.

فكان هذه الرسائل ألقت أصلاً للفصيح من الكلام، وهذا ما صنعه ثعلب حين سمى كتابه (الفصيح)، وما فعله ابن قتيبة حين سمى كتابه (أدب الكاتب).

ويظهر أن التأليف البصري في هذا الفن ظل متخلفاً وراء التأليف الكوفي وربما يكون أقدم كتاب بصري في هذا الغرض هو كتاب (ما تلحن فيه العامة) لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٨ هـ)، ثم جاء بعده كتاب (ما يلحن فيه العامة) للأصمعي: (ت ٢١٦ هـ).

وكلا الكتابين مفقود، لكن اشتهر عن الأصمعي أنه كان معيارياً متشديداً في مقياس الصواب^(٢) حتى قال ابن السيد البطليوسي: ((وقد أنكر الأصمعي أشياء كثيرة كلها صحيح، فلا وجه لإدخالها في لحن العامة من أجل إنكار الأصمعي لها))^(٣).

ويظل هذا الفن — تقريباً — فناً كوفياً، حتى أتى البغداديون ممن غلبت عليهم النزعة البصرية. فشاركوا الكوفيين في هذا الفن^(٤).

الكوفيون والبصريون والتصحيح اللغوي

سبقت البصرة الكوفة في علم النحو بنحو مائة عام؛ لانصراف الكوفيين عن التلقى ترفعاً في بداية الأمر، وما لبثوا أن شغلهم الشعر وروايته، والأدب وطرائقه عن مدارس النحو^(٥).

(١) انظر: لحن العامة والتطور اللغوي، د. رمضان عبد التواب، ص ٧٢، وما بعدها، والحن في اللغة، د. عبد الفتاح سليم، ص ٥٠، وما بعدها.

(٢) انظر على سبيل المثال: الخصائص ٢٩٥/٣، والمداخل إلى تقويم اللسان، ص ٧٦، بتحقيق د. حاتم الضامن، في جملة المورد العراقية، عدد ٣٨، لسنة ١٣٦٠ هـ، و خمر الكلام في التقصي عن أغلاط العوام، ص ٢٨، بتصرف يسير.

(٣) الاقتضاب ٢٢٢/٢.

(٤) سيأتي توضيح هذا عند الحديث عن موقف البغداديين من اللحن ٢٠٥.

(٥) انظر: نشأة النحو للشيخ الطنطاوى ص ١٣٤، والمدارس النحوية، خديجة الحديثي، ص ١١٧.

كما أن الكوفة منزل العناصر العربية الأرستقراطية. وموطن أمراء القبائل^(١).

ومعنى هذا أن النحو وصل الكوفيين بعد أن استوت أصوله عند البصريين معتمدين أساساً على القياس النحو المعيارى فى أكثره. أما الكوفيون فرأوا احترام كل ما جاء عن العرب، وكان البصريون أشبه بالمحافظين المتمسكين بالقديم، وكان الكوفيون أحراراً مجددين، يلتمسون التوسع، ويجرون وراء الابتكار.

والأصل الذى بنى عليه القدماء التمييز بين المذهبين أو المدرستين هو ما ذكره السيوطى فى الاقتراح^(٢) من أن مذهب الكوفيين القياس على الشاذ، ومذهب البصريين اتباع التأويلات البعيدة التى خالفها الظاهر.

والبصريون قوم منطقيون وقياسيون، كانوا أسبق من غيرهم إلى الانتفاع بالمنطق الأرسطى ذلك أن تأثير المذاهب الفلسفية ظهر فى البصرة قبل الكوفة^(٣)، كما كان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين أفسحوا المجال للحكمة الأجنبية، لكى تؤثر فى مذاهبهم الكلامية، وبلغ من حرصهم على القياس أن استهانوا - أحياناً - بالسماع، وجعلوه شاذاً لا يقاس عليه، وألزموا النحو حدود أقيستهم ونظرياتهم الفلسفية. وكثيراً ما كانوا إذا وجدوا شواهد مخالفة لأقيستهم ونظرياتهم أجهدوا عقولهم. وكدوا أذهانهم فى تأويلها. وتخريجها، وتسخيرها لما أرادوا، وهم يرون أن العرب بنوا كلامهم على اعتبار حكم المشاكلة. والمحافضة على أن تجرى الأبواب على نسق واحد، لذا كانت الفكرة الراسخة فى أذهان البصريين أن اللغة ينبغى أن تسير على سنن واحد، وتجرى دائماً منطقية. ولكن اللغة ليست منطقية دائماً.

ويرى دى بور أن نحاة البصرة قد جعلوا للقياس شأناً كبيراً فى الأمور المتعلقة بأمر اللغة. كما فعل البغداديون فيما بعد. على حين ترخص نحاة الكوفة فى أمور كثيرة تشذ عن القياس، ولذا سمى نحاة البصرة بأهل المنطق. تمييزاً لهم عن نحاة الكوفة.

غير أن الكوفيين لم يكونوا بمنأى عن البصرة، فتأثروا بالمنطق والقياس، ولكنهم لم يبالغوا فيه مبالغة البصريين^(٤).

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن^(٥) كلا الفريقين أخذ بالقياس، بيد أن قياس البصرة غير قياس الكوفة، فقد عول الكوفيون على كل مسموع، ولو كان لغة نادرة الوقوع، فى حين أن البصريين لم يقيسوا إلا على المشهور من كلام العرب، الذين أدخلوهم فى دائرة استقراءهم، والأخذ عنهم.

وأدى هذا إلى أن ضاق نحو البصريين بمقاييسهم. على أن يسع نفسه، وهو فى ريعان الشباب.

(١) مدرسة الكوفة ص ٣٩.

(٢) انظر : الاقتراح فى علم أصول النحو ص ٤٢٨.

(٣) انظر : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، دى بور ، ص ٥٥ ، وراجع : الفراهيدي عبقرى من البصرة ، ص ٨٦ .

(٤) انظر : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٥٥ . ٢٠٦

(٥) انظر : المدارس النحوية ص ١٥٨ .

فوقعوا في تلحين شيوخهم. فقالوا لحن سيبويه في كتابه^(١)، ولحن فلان، ولحن فلان، وهم من أئمة المذهب البصري.

وقد جمع السيوطي خلاصة آراء القدماء في المذهب البصري والكوفي، إذ يقول: اتفقوا على أن البصريين أصح قياساً، لأنهم لا يلتفتون إلى كل مسموع، ولا يقيسون على الشاذ، والكوفيون أوسع رواية، ويقول أيضاً: ومما افتخر به البصريون على الكوفيين أنهم يأخذون اللغة عن حرشة الضباب، وأكلة اليرابيع، والكوفيون يأخذونها عن أكلة الشواريز، وباعة الكواميخ، ويرى أن الكوفيين يعتدون بالشواهد الفردية، وإن لم يرد غيرها في كلام العرب، فإذا سمعوا لفظاً من شعر، أو نادراً في كلام، جعلوه باباً، ولو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً، وبوبوا عليه^(٢).

ويروى عن الكسائي: «على ما سمعت من كلام العرب ليس أحد يلحن إلا قليل»^(٣).

وقال ابن درستويه: كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة، فيجعله أصلاً وقيس عليه فأفسد بذلك النحو^(٤).

ويحتج الكوفيون بأبيات الشعر التي لم يعرف قائلها، فقد أجازوا إظهار (أن) بعد (كي) وأجازوا دخول اللام في خبر (لكن)، وأجازوا مد المقصور، واستدلوا لكل هذا بأبيات مجهولة القائل. وهم يرون أن هذه الأبيات إن صدرت عن ثقة يعتمد عليه قبلت، وإلا فلا تقبل^(٥).

ولم يكن الكوفيون وحدهم الذين يحتجون بأبيات مجهولة القائل، فهذا سيبويه في كتابه يستشهد بمثل هذه الأبيات، ففي كتابه خمسون بيتاً مجهولة القائلين، فإذا علما أن كتاب سيبويه كان يغص بمثل هذه الأبيات، وأن كثيراً من أبياته نسبت على يد أبي عمر الجرمي^(٦)، أدركنا سر القضية، حتى أن سيبويه استشهد بشعر بشار بن برد^(٧).

" لقد جمع الكوفيون بين شتات لغات جميع قبائل العرب، وحفظوها، ولذا فتتبع آراء الكوفيين واستقرائها يطلعنا على لغات قدماء العرب، وهو أمر جليل الشأن، وأما من يتتبع آراء البصريين فلا يقف إلا على لغة قریش " ^(٨).

وقد وسع الكوفيون دائرة الاحتجاج في هذه المسألة إذ احتجوا بأشعار الطبقتين اللتين لم يحتج

(١) من كلام الدكتور طه الراوي في تصدير كتاب : الموق في النحو الكوفي ، للكنغراوي ، نشر في مجلة المجمع الدمشقي ،

المجلد الرابع و العشرون ، ذى الحجة ١٣٦٨ - العدد ٤ ص ٤٣٠ .

(٢) انظر : الاقتراح ص ٤٢٩ .

(٣) البغية ١٦٤/٢ .

(٤) راجع : معجم الأدباء ٩٥/٤ .

(٥) انظر : المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية ٥٥/١ .

(٦) خزائن الأدب ٧/١ .

(٧) انظر : سيبويه إمام النحاة ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٨) مجلة لغة العرب المجلد الأول العدد الأول ص ٩ ، ١٠ .

بهما البصريون. على أن الطبقة الرابعة تشمل المولدين أو المحدثين، ومن جاءوا بعدهم كبشار بن برد وأبى نواس^(١).

يقول الدكتور المخزومي: «والشعر العربي جاهليته وإسلاميه ومحدثه، كان أيضاً مصدراً من مصادر الدراسة الكوفية، ومحتجاً للكوفيين وأساساً بنوا عليه كثيراً من أصولهم عليه»^(٢).
وكثيراً ما يتردد في مصنفات الكوفيين كالكسائي والفراء وتعلب عبارات تدل على اعتدادهم بالسماع والوقوف عنده، من هذا ما أثر عن الكسائي عندما سئل عن (أي) في قولهم: (ضربت أيهم قام)، فقال: (أيهم) بالضم، فقليل له؛ ولم؟ قال: (أي) هكذا خلقت^(٣)، وهذا منهج وصفي يعتمد على السماع بعيداً عن الحجاج العقلي المنطقي.

أما الفراء فهو يقول في بعض كلامه: إلا أن تسمع شيئاً من بدوى فصيح فتقوله^(٤)، وكثيراً ما يقول في كتبه: سمعت أعرابياً من ربيعة، وقال بعض نساء العرب، وسمعت بعض العرب، وأنشدني بعض العرب، ومن العرب من يقول^(٥).

وقد ينص على عدم السماع، فيقول: "ولم أسمع أحداً نصب"^(٦)، وكان يوقف الأمر على السماع أحياناً. فيقول مثلاً: "ولو سمعها لكان جائزاً. ولم نسمعه"^(٧)، ويقول: "وليس يضبط إلّا بالسمع"^(٨). وهو لا يسمع إلا من ثقة، يقول: "وزعم لي الرؤاسي وكان ثقة مأموناً: أنه سمع"^(٩).

(١) الكوفيون في النحو والصرف والمنهج الوصفي المعاصر ص ٣٤.

(٢) مدرسة الكوفة ص ٣٣٣.

(٣) انظر: أخبار النحويين البصريين، ص ٥١، تحقيق الدكتور البنا.

(٤) انظر: المنقوص والممدود، للفراء ص ١٣.

(٥) انظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣، ٤١، ٤٢، ٥١، ٥٦، ٥٨، ٩٠، ١٣٤، ١٤٢، ١٥٢، ١٦٤، ١٧٢،

١٩٥، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٨٢، ٢٩٩، ٣٢٣، ٣٩٩، ٤١٩، ٤٢٤،

٤٣٢، ٤٥٩، ٤٦٩، ٢/ ١٢، ١٤، ١٥، ١٩، ٢٠، ٣٣، ٣٦، ٤٢، ٧٤، ٧٦، ٩٩، ١٠١، ١٠٢،

١٢٤، ١٢٨، ١٣٠، ١٣١، ١٤٥، ١٥٠، ١٨٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٧، ٢١٨، ٢٣٨، ٢٤٤، ٢٦٩،

٢٨٥، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٠٠، ٣٠٧، ٣١٠، ٣١٣، ٣٢٩، ٣٣٦، ٣٥٩، ٣٧١، ٣٧٣، ٩/ ٣، ١٤، ١٥،

٣٦، ٧٨، ٨١، ١٠٠، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٦، ١١٧، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٠،

١٣١، ١٣٧، ١٧٢، ١٧٩، ٢١٧، ٢٣٠، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٨، ٢٦٧،

٢٧٢، ٢٧٤، ٢٨٢، ٢٨٦، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٨،

(٦) انظر: معاني القرآن للفراء، ١/ ١٤٠،

(٧) معاني القرآن للفراء، ١/ ١٨٨، وراجع: ١/ ١٤٠، ٢٠٧، ٢٤٥، ٣٨٣، ٣٩٤، ٢/ ١٦، ٢٢، ٧٣، ٧٨،

٩٧، ١٠٧، ١١٧، ١٤٩، ١٧٣، ١٩١، ٢٠٩، ٢١١، ٢٢١، ٢٩٧، ٣٠٥، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٦، ٣٧٨،

٣٨٨، ٣/ ٢٥، ٤٥، ١١٤، ٢٤٩، ٢٨٠،

(٨) المرجع السابق، ٣/ ١٤٩.

(٩) السابق، ٣/ ٢٩٢.

ويظهر أن السماع كان أساس ما يضعون عليه قواعدهم، ويدخل في هذا النادر، والغريب، والشاذ. فهم يوقرون كل مسموع، ويعتدون به، وإن كانوا يحيون ما كان كثيراً مجتمعاً عليه. وربما يؤخذ عليهم أنهم أحياناً لا يحددون القبيلة. ولا يشيرون إلى فصيح، وأفصح، أو صحيح وفصيح، كما أن الرقعة التي اعتمد عليها الفراء والكوفيون في شواهدهم واسعة جداً. والكوفيون في تجويزهم القليل، يستحبون الكثير : لذا قال الفراء: لست أستحب ذلك لقلته^(١)، وهذا يفسر تأليفهم في الفصيح، فالفصيح عندهم ما كان كثيراً. والصحيح ما كان بخلافه. وحين جاء ثعلب، وابن الأثير اعتمدا رواية الكسائي والفراء، ولم يكن لهما شأن يذكر في تطور النحو الكوفي^(٢)، وإن كانا سبباً في ازدياد حدة الخلاف بين المذهبيين وكان ثعلب يقول: قال الفراء، وقال الكسائي، فإذا سنل عن الحجة في ذلك، لم يعرف النظر^(٣). وكان إبراهيم الحربي أحد أصحاب ثعلب يقول^(٤): بلغني أن أبا العباس أحمد بن يحيى قيد كره الكلام في الاسم والمسمى، وقد كرهت لكم -يعنى أصحابه- ما كره أحمد بن يحيى، ورضيت لنفسى ما رضى. يقول الدكتور الحموز: «وبعد... فلست أنكر بعض المواقف الكوفية المتشددة من حيث كلام العرب وأنهم قد غلطوا بعضهم شاعراً كان أو ناثراً، وقد استهجنوا بعض اللغات، واستبشعوا أخرى»^(٥).

ومنها لغة تلقاها البصريون بالقبول، ولكن الفراء والكسائي أنكراها إذ لم يحملها عليها إلغاء إذن مع توافر قيود إعمالها، وإلغاء إذن مع اجتماع الشروط لغة لبعض العرب، حكاها عيسى بن عمر، وتلقاها البصريون بالقبول، ووافقهم ثعلب، وخالف سائر الكوفيين. فلم يجز أحد منهم الرفع بعدها، قال أبو حيان^(٦): رواية الثقة مقبولة، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ، إلا أنها لغة نادرة جداً، ولذلك أنكرها الكسائي والفراء على اتساع حفظهما وأخذهما بالشاذ والقليل^(٧).

وبعد... فإن المدرسة الكوفية بمنهجها الوصفي صارت عمدة المصححين اللغويين الوصفيين، أو الميسرين. وأوجدت لنفسها في العصر الحاضر - خاصة - مذهباً نحوياً أصبح له قيمة في درس اللغة العربية، وقد أشاد كثيراً من المحدثين النحويين ببناء الصرح النحوي الكوفي، وجعلوه موافقاً

(١) معان القرآن ١٩/١ .

(٢) انظر : طبقات النحويين ، الزبيدي ، ص ١٤١ ، والمدارس النحوية ، شوقي ضيف ، ص ٦ ، ٢٢٦ ، والمدارس النحوية ، خديجة الحديثي ، ص ١٧٩ .

(٣) مقدمة شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٢١ ثعلب ، وراجع : معجم الأدباء ١٢٠/٥ .

(٤) إنباه الرواة ١٠/١٤٢ .

(٥) انظر مدرسة الكوفة ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

(٦) انظر : الجمع ٢/ ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٧) الكوفيون في النحر والصرف والمنهج الوصفي المعاصر للدكتور عبد الفتاح الحموز ص ٢٣ .

للمنهج الوصفي الحديث للغة، ومن هؤلاء مهدي المخزومي في كتابه (مدرسة الكوفة) وعبد الفتاح الحموز في كتابه (الكوفيون في النحو والصرف والمنهج الوصفي المعاصر).

ومن قبل استشر الكنزاوي (ت ١٣٤٩ هـ) صاحب الموفي في النحو الكوفي هذا الأمر، فذكر في مقدمة كتابه سبب تأليفه. فقال: "أما بعد فهذا كتاب (نحو) وضعته على مذهب الأئمة الكوفيين ومصطلحاتهم؛ إذ وجدت أنها أهملت، وهي تحتاج إلى النظر والتبصر من أهل التأويل، والفقهاء والعلماء، ويبنى عليها وجوه من القراءات والروايات المتحملة عن الفصحاء والبلغاء" (١).

البغداديون والتصحيح اللغوي

ذكر أبو الطيب اللغوي بعضاً من خصائص المذهب البغدادي، فقال: «فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريباً، وغلب أهل الكوفة على بغداد وحدثوا الملوكة، فقدموهم، ورغب الناس في الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر، وتباهوا بالترخيصات، وتركوا الأصول، واعتمدوا على الفروع، فاختلط العلم» (٢).

وأبو الطيب في هذا النص يوضح الأساس الذي نشأت عليه حركة البغداديين اللغوية، ويعني من كلامه قوله: «ورغب الناس في الروايات الشاذة، وتفاخروا بالنوادر، وتباهوا بالترخيصات، وتركوا الأصول، واعتمدوا على الفروع». فهل هو في هذا النص يعيب على الكوفيين منهجهم، أو هو يوضح منهج البغداديين الجديد. ويوضح سبب انتشاره؟

أعتقد أنه ما أراد سوى التعريض بمذهب الكوفيين، ومدح مذهب البصريين؛ لأن الثابت أن منهج البغداديين لم يكن كله ماءً واحداً، بل غلب على البغداديين في آخرهم المذهب البصري، ومال إليه أكثر النحاة. وبدأ البغداديون كوفيين. وانتهى بهم الحال بصريين (٣).

وتتجلى خصائص المذهب البغدادي بوضوح في قضية الشواهد، والشاهد في علم النحو هو النحو؛ لأن النحو يدرس التفاعل بين الكلمات، ومادة الدراسة النحوية في القديم والحديث كلام العرب. فكيف كان موقف مدرسة بغداد من هذه الشواهد؟

"من الخصائص المذهبية. للدرس النحوي في بغداد أنه كان يخضع القياس للنقل، ويعمل البغداديون جاهدين أن يغيروا الأصول لتكون وفق الأمثلة المسموعة، وهو دليل واضح على اعتدادهم بالسماع. واعتدادهم بالواية. واتساع دائرة النقل عنهم" (٤).

وموقف المذهب البغدادي من السماع قريب من موقف الكوفيين؛ لأن اللغات على اختلافهم حجة عندهم. أما القياس فلها منه موقف. لا هو بالبصري ولا بالكوفي فهي: "تنظر في المثال وتتأمله

(١) بنوني في النحو الكوفي، ص ٤٣٣.

(٢) تاريخ النحويين ص ٧٤، ٧٦، ٩٠.

(٣) نظر المدارس النحوية د. شوقي ضيف ص ٦، ٧، ٢٦٠، والمدارس النحوية في تاريخ النحو العربي، د. حسني

وتدرسه دراسة مستفيضة، وموقفهم من القراءات لا هو بصري ولا كوفي، فالبصريون يرفضون الشاذ منها، والكوفيون يقبلونها على علاتها، أما البغداديون فلا يرفضون شيئاً منها إلا بعد مناقشة ولجوء إلى عناء البحث والتمحيص^(١).

رد البصريون كثيراً من القراءات القرآنية التي لا تتفق ومقاييس النحو على المذهب البصري. لكن البغداديين قبلوها^(٢)، ودافعوا عنها وألقوا في هذا، كما فعل أبو علي الفارسي، في الحجة، وابن جني في المحتسب في توجيه القراءات الشاذة، وابن خالويه في الحجة، وغيرهم.

رفض البصريون^(٣) والكوفيون الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف وبشعر المحدثين، وجعلوا ابن هرمة القرشي (ت ١٧٦ هـ) سقفاً زمنياً لصحة الاحتجاج بشعر الشعراء فخالفهم البغداديون واحتجوا بالحديث النبوي. فأبو علي الفارسي (٣٧٧ هـ) احتج في (الشيرازيات) باثني عشر حديثاً، وحذا حذوه تلميذه ابن جني (ت ٣٩٢ هـ). وقد أكثر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) فيما بعد من الاحتجاج به حتى بلغ هذا الاحتجاج ذروته مع الرضى الاسترأبادي (ت ٦٨٨ هـ) فاحتج على صحة القواعد النحوية بخمسة وأربعين حديثاً في شرح الكافية وبثلاثة فقط في شرح الشافية^(٤).

وموقف البغداديين من الاستشهاد بالحديث النبوي لا قس استحسنان الدارسين المحدثين. والمشتغلين بالتصحيح اللغوي، من أنصار الوصفية في الدرس اللغوي، مما حمل مجمع اللغة بالقاهرة على وضع شروط معينة لصحة الاحتجاج به، كما أسلفت. وهذا يعني أن موقف البغداديين سليم جداً، وأنهم صححوا خطأ المتقدمين وأسقطوا ذرائعهم في عدم الاحتجاج به.

التأليف في التصحيح اللغوي عند البغداديين

من العسير التحديد الدقيق لزمان لنشأة المذهب البغدادى. ولو اعتمدنا ما ذكره الدكتور محمود حسني من أن نشأة المذهب البغدادى قامت على يد الأخفش الأوسط (المتوفى ٢١٥ هـ)^(٥) يمكن حينها تحديد دور البغداديين في التصحيح اللغوي.

باستعراض قوائم كتب لحن العامة^(٦) يمكن معرفة من ألف في لحن العامة والخاصة من البغداديين. وأشهر هذه الكتب:

* إصلاح المنطق. لابن السكيت، (٢٤٤ هـ).

* ما تلحن فيه العامة. للسجستاني، (ت ٢٥٥ هـ).

(١) انظر : المدرسة البغدادية في النحو العربي ، د . حسني محمود ، ص ١٤٠ .

(٢) انظر تفصيل هذه المسألة ، وشواهد عليها في : الدرس النحوي في بغداد ، د . مهدي المخزومي ، ص ٦٢ : ٧٠ .

والمدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي ، د . حسني محمود ، ص ١٤٠ ، وما بعدها .

(٣) انظر : الدرس النحوي في بغداد ، د . مهدي المخزومي ، ص ٥٨ ، وما بعدها .

(٤) انظر أمثلة وشواهد على هذا في : المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي ، د . حسني محمود ، ص ١٤٠ : ١٤٦ .

(٥) انظر : المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي ، د . حسني محمود ، ص ٧٥ .

(٦) انظر : لحن العامة والتطور اللغوي ، د . رمضان عبد التواب ، ص ٧٢ ، وما بعدها .

* أدب الكاتب. لابن قتيبة، (ت ٢٧٦ هـ).

* الفصيح. لثعلب، (ت ٢٩١ هـ).

* ليس في كلام العرب، لابن خالويه، (ت ٣٧٠ هـ).

* درة الغواص، للحريري، (ت ٥١٦ هـ).

ويلاحظ أن هذه الكتب عمدة في بابها، لمن أتى بعدهم. وقد تناولوها بالشرح، والاختصار. والنظم، والنثر، كما يقول الدكتور حسين نصار " وقد نالت أربعة كتب من هذا النوع إعجاب اللغويين فقامت حولها دراسات، ضخمة كثيرة، بلغت عشرات الرسائل، ما بين شرح، واختصار، وتهذيب، وترتيب وتكملة، ونقد ودفاع، ونظم، وشرح للنظم: هذه الكتب هي: إصلاح ابن السكيت، وأدب ابن قتيبة. وفصيح ثعلب، ودرة الحريري " (١).

كما يلاحظ غلبة المذهب المعياري على هذه الكتب، مما يعني أن المذهب الغدادي غلب عليه معيارية في أول أمره، وهذا يتناقض مع ما ذكرت سابقاً من أنهم أقرب إلى مذهب الكوفيين، بترخصاتهم اللغوية، واتساع مذهبهم لكلام العرب كافة.

وربما يفسر هذا الأمر أن هذه الكتب في الحقيقة ليست سوى كتب أو رسائل فيما يكون به الكاتب أو الشاعر فصيحاً. وهذا أمر زائد على أن يكون صحيحاً، وهم في سبيل ذلك يطلبون من الكاتب أو القائل أن يجري لسانه على نمط واحد من الكلام هو المجمع عليه، البعيد عن الخلاف بين نحوي البصرة والكوفة، فهم لا يقصدون التخطئة إلا من هذه الجهة.

وربما يشهد لما أقول أن هذا العصر شهد ابن جني بتخريجاته اللغوية، ودفاعه الطويل الدائم عن لغة العرب، القدماء والمولدين، يستوي في هذا عنده (التنبيه على مشكلات الحماسة) من أشعار القدماء، و (تفسير أرجوزة أبي نواس) و (الفسر) في شرح ديوان المتنبي من المولدين. وكثيراً ما كان يخرج ما يطعن به المتنبي لغوياً، وهو الشارح الأهم المقدم عند المتنبي الكوفي النزعة، حتى كان يقول: أسألوا الشارح، يعني: ابن جني، أو: لو كان أبو الفتح حاضراً لأجاب (٢).

ولقد ظهر في عصر المتنبي من يقول عنه: " لا تخلو قصيدة من قصائده من الخطأ في اللغة واللحن في الإعراب " (٣).

ومن المعلوم أن المتنبي كان كوفي المذهب في النحو واللغة، ومع هذا كان ابن جني لا يتحرج من تخريج المشكل في شعره. في الوقت الذي انتقده كثيرون لغوياً، وألفوا في نقده كتباً، ورسائل.

(١) المعجم العربي نشأته وتطوره، ١ / ١١٦ .

(٢) انظر: الصبح المنبي عن حثيثة المتنبي، ليوسف البديع، ص ١٤٧ .

(٣) المتنبي ومشكلة اللغوية، د. صاحب أبو جناح، بحث منشور في مجلة المورد العراقية، المجلد السادس، العدد الثالث.

هذا عن موقف ابن جني مما يعده بعضهم مشكلاً، وغلطاً في الشعر.

فإذا ما انتقلنا إلى موقفه من مصادر الحجاج السماعية الأخرى ألفيناه في القراءات القرآنية يدافع عنها وينافح، مخالفاً طريقة البصريين، وجرداً لهذا الغرض كتابه (المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات، والإيضاح عنها) . وفي هذا الكتاب بين أن " غرضنا منه أن نري وجه قوة ما يسمى الآن شاذاً، وأنه ضارب في صحة الرواية بجرانه "(١).

وهو في هذا متابع الكوفيين.

ويقول عن الشاذ في القراءات: " ولعله - أو كثيراً منه - مساوٍ في الفصاحة للمجتمع عليه. نعم، وربما كان فيه ما تلتف صنعته، وتغف به فصحته، وتمطوه قوى أسبابه، وترسو به قديم إعرابه "(٢).

وفي هذا العصر نجد الكتب المؤلفة في الاحتجاج بالقراءات والاحتجاج لها. كما هو الحال في حجة ابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ) و حجة أبي علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ). ولم يختلف حاله في الاحتجاج بالحديث الشريف (٣).

وفي موقفه من الاحتجاج بلهجات العرب يخالف طريقة البصريين، ويتبع الكوفيين في أن كل لغات العرب حجة و " الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ، وإن كان غير ما جاء به خيراً منه "(٤).

وهذه الفكرة خاصة عند ابن جني هي جوهر المدرسة الكوفية في السماع، والقياس عليه. وهي الفكرة الرئيسية في مذهب الوصفيين المعاصرين، الذين يفرقون بين نمطين من الكلام. نمط مجمع عليه أو كثير في الكلام المحتج فهذا فصيح، ونمط آخر، أقل من سابقه، أو شاذ، أو لم يرد عن العرب أصلاً. واكتسب قوة الوجود بسبب شيوع الاستعمال، فكل هذا عندهم صحيح، وقد بنى الدكتور أحمد مختار عمر معجمه: معجم الصواب والخطأ على هذه الفكرة.

ومن يطالع هذه الأفكار عند ابن جني يعتقد، بل يجزم أن الرجل بغدادى على مذهب الكوفيين (٥). لكن يبدو أن ابن جني يميل إلى مذهب الكوفيين في السماع، ويأخذ بمنهج البصريين في

(١) المحتسب لابن جني ٣١/١.

(٢) السابق، نفسه.

(٣) قال في الخصائص، ١٦٦/٣: " وعلى ذلك عامة ما جاء في القرآن وفي حديث النبي ومن بعده رضوان الله عليهم ". وراجع: ابن جني عالم العربية، ص ٥٢، ٥٣.

(٤) الخصائص، ١٢/٢.

(٥) جعل الدكتور فاضل السامرائي ابن جني بصري المذهب، ورفض بشدة سبته إلى المذهب البغدادي. راجع: ابن جني النحوي، ص ٢٦٨. بينما جعله الدكتور حسني محمود بغدادى المذهب، في كتابه: دراسة البغدادية في تاريخ النحو، ص ١٢١، وما بعدها. ويبدو هذا هو الصواب لما ذكرته. وراجع: ابن جني عالم العربية، د. حسام النعيمي.

ص ٣٨، وما بعدها.

القياس، فهو وإن دافع عن الشاذ في القراءات القرآنية إلا أنه لا يحب القياس عليه، ويجعله محفوظاً في (أرشيف) التاريخ اللغوي، وهو مع موقفه الرائع من الاستشهاد بلغات العرب وكلها - عنده - حجة^(١)، إلا أن الحجة فيها من جهة صدورها عن عربي، فإن خالف العربي ما عليه أكثر العرب والأعراب، فهو حجة في نفسه، ولكن لا يقاس عليه، كما أنه لا يلحّن.

الأندلسيون والتصحيح اللغوي

كان للمذهب البصري في الأندلس السمة الغالبة في آخره، فقد رأينا عشرات من علماء الأندلس وقد عكفوا يشرحون كتاب سيبويه ويعلقون عليه ويدرسونه... الأمر الذي ترك بصمات واضحة في مؤلفاتهم^(٢)، وإن ظل النحو الكوفي له حضوره في البيئة الأندلسية، "وقد عُدَّ ابن سيده بما خلطه من مؤلفاته من علم البصريين والكوفيين بداية اتجاه الأندلسيين إلى النحو البغدادي، إلى جانب النحويين: البصري، والكوفي، وسار النحاة الذين جاءوا بعدهم على العناية بالمذاهب الثلاثة، وأصبح النحو خليطاً منها، وإن كان البغدادي في الأصل خليطاً من النحويين: البصري والكوفي، مع آراء جديدة"^(٣).

ومع أن التأثير بالاتجاه في الدرس النحوي كان غالباً مع الاتجاه البغدادي إلا أن النحو في الأندلس كانت له سمة خاصة، فقد تأثر بعض النحويين الأندلسيين، أو كما يسميهم بعض الباحثين: (القرطبيين)^(٤) تأثراً واضحاً بالمذهب الظاهري في الفقه^(٥) على يد ابن حزم الذي دعا إلى التخلص من علل النحو، ودعا إلى عدم التعمق فيه: "لأن التعمق حسب رأيه" - فضول لا منفعة فيه، بل هي مشغلة عن الأوكد"^(٦)، وعدّ كذلك العلل النحوية فاسدة ويجب التخلص منها^(٧)، ومن بعده ابن رشد الحفيد الذي دعا في كتابه (الضروري في علم النحو) الذي ألفه وجعل غرضه "أن يذكر من علم النحو ما هو كالضروري لمن أراد أن يتكلم على عادة العرب في كلامهم، ويتحرى في ذلك ما هو أقرب إلى الأمر الصناعي، وأسهل تعليمياً، وأشدّ تحصيلاً للمعاني"^(٨).

وكان لدعوة هذين الفقيهين في تفسير النحو، وترك العلل، والقياس المنطقي أثر كبير في

(١) انظر: الخصائص، ١٠/٢.

(٢) انظر: المدارس النحوية شوقي ضيف ص ٢٨٩ : ٢٩٢، وللذكورة خديجة الحديثي، ص ٣٠٩ : ٣١١.

(٣) المدارس النحوية، للذكورة خديجة الحديثي، ص ٣١٣ : ٣١٤.

(٤) هو الدكتور عبد الأمين محمد الورد في كتابه: المدارس النحوية بين التصور والتصديق، ص ٣٧. ورفض تسمية المدرسة الأندلسية سوى بهذا الاسم؛ لأن الأندلسيين في رأيه لم يقيموا مدرسة نحوية بالمعنى الاصطلاحي، إلا ما كان من أمر ابن مضاء القرطبي، ولذلك أثر التعبير بالمدرسة القرطبية. لكن في خصائص مذهب الأندلس النحوي، للدكتور عبد القادر رحيم الميحي، ص ٤٧، وما بعدها دليل على وجود مذهب أندلسي نحوي.

(٥) انظر: خصائص مذهب الأندلس النحوي، للدكتور عبد القادر رحيم الميحي، ص ٢٥.

(٦) مراتب العلوم، لابن حزم ص ٦٤، ٦٥.

(٧) انظر: التقريب لحد المنطق لابن حزم ص ١٦٨. ٣١٤

(٨) الضروري في صناعة النحو، المقدمة، ص ٤.

نحاة العصر. مما دعا القاضي الظاهري ابن مضاء القرطبي لتأليف رسالة في الرد على النحاة. وهاجم فيها فكرة العامل النحوي. ودعا إلى ترك العلل الثواني والثالث.

وهو بصنيعه هذا أقرب إلى منهج الكوفيين. يقول الدكتور المخزومي: " ولم يوجه ابن مضاء إلى الكوفيين ما طعن به على البصريين، وهذا يشير إلى أنه كان نحويًا على مذهب الكوفيين. أو أنه كان يرى نفسه بجانب الكوفيين ^(١) "

وقد تركت هذه الدعوة أثراً ظاهراً في عدد من نحاة الأندلس ^(٢)، منهم ابن السيد البطليوسي. الذي انتقد المنطق الأروسطي في النحو. فقال: " وجعل أكثر من ذكر الموضوع والمحمول. ويورد الألفاظ المنطقية التي يستعملها أهل البرهان. فقلت له أنت تريد أن تدخل صناعة المنطق في صناعة النحو، وصناعة النحو تستعمل فيها مجازات ومسامحات لا يستعملها أهل المنطق، وقد قال أهل الفلسفة: يجب أن تحمل كل صناعة على القوانين المتعارفة بين أهلها، وكانوا يرون أن إدخال بعض الصناعات في بعض إنما يكون من جهل المتكلم أو عن قصد منه للمغالطة واستراحة بالانتقال من صناعة إلى أخرى إذا ضاقت عليه طرق الكلام ^(٣) .

ومن هؤلاء النحاة أيضاً ابن الطراوة. الذي نقلت عنه قولته المشهورة: " إذا عرف المعنى فارفع ما شئت. وانصب ما شئت ^(٤) .

ومن النحاة الذين تأثروا بهذه الدعوة السهيلي. تلميذ ابن الطراوة، وله في المنوع من الصرف. رأي مبناه على السماع عن العرب. وفيه يقول: " وهذا الباب لو قصر على السماع ولم يعلوه بأكثر من النقل عن العرب لانتفع بنقلهم، ولم يكثر الحشو في كلامهم، ولما تضاحك أهل العلوم من فساد تعليلهم حتى ضربوا المثل بهم فقالوا: أضعف من حجة نحوي.

وتعليلهم لهذا الباب يشتمل على ضروب من التحكم وأنواع من التناقض وفساد في العلل: لأن العلة الصحيحة هي المطردة المنعكسة التي يوجد الحكم بوجودها، ويفقد بفقدانها ^(٥) .

وأثر هذه الدعوة ظاهر أيضاً عند أبي حيان. فقد أشاد بالقاضي ابن مضاء. ودعا في كثير من موافقه النحوية إلى ترك التعليل. والتأويل.

وقد أدى احترام نحاة الأندلس للمسموع الذي توافرت فيه شرائط الكثرة والتوثيق، ولا يعارض بقياس - غالباً - جعل القرآن الكريم وقراءاته في المرتبة الأولى من شواهدهم، وقد فاقت شواهد القرآن غيرها من الشواهد في كثير من كتبهم النحوية كذلك - أيضاً - احتجاجهم بالقراءات الشاذة.

(١) الدرس النحوي في بغداد، د. مهدي المخزومي، ص ١٨٤.

(٢) انظر: خصائص مذهب الأندلس النحوي، للدكتور عبد القادر رحيم الهيبي، ص ١٤٤.

(٣) انظر: الأشباه والنظائر ٣ / ١٤٨، وراجع: ابن السيد البطليوسي، حياته - منهجه في النحو واللغة - ص ١٤٠.

للدكتور صاحب أبو حناح، مجلة المورد العراقية، عدد ٢١، ص ٧٩، ما بعدها.

(٤) البسيط ٢ / ١٦٢.

(٥) أمالي السهيلي، ١٩، ٢٠.

إن منهج الأندلسيين يميل عموماً إلى التيسير، وهذا قد رجع أثره على عملية التصحيح اللغوي، وموقفهم من اللحن، فقد اتسعت مصادر الحجاج عندهم، كما سبق بيانه، فاستدلوا بالقرآن الكريم، وبالقرارات المجمع عليها، أو المفردات القرآنية، واستشهد كثير منهم بالحديث الشريف، وأشهرهم في هذا ابن مالك، كما استشهدوا بلغات العرب.

وهذا ترك أثره في فهمهم اللغة، فما يعده بعضهم خطأ يعده ابن مالك، وهو من هو في المدرسة الأندلسية صحيحاً، إذا كان له سند صحيح من السماع، والقياس، ومن هذا تخطئة الحريري لاستعمال (من) في ابتداء الزمان (١)، لكن ابن مالك يجيزه، والحجة عنده: "ثبوت ذلك في القرآن والأحاديث الصحيحة والأشعار الفصيحة" (٢).

ويقول ابن مالك وهو يتحدث عن حكم حذف حرف الجر في باب المتعدي وال لازم "فإن ورد حذفه وكثر، قُبِلَ وقيس عليه، وإن لم يكثر، قُبِلَ ولم يقس عليه" (٣).

وقد شارك نحاة الأندلس في حركة التصحيح اللغوي، ووصلنا من مؤلفاتهم ستة كتب، أولها كتاب: (لحن العوام) للزبيدي، وهو منسوب إلى التشدد في معالجه لفضايا اللحن، فهو لا يحتج بالقرارات القرآنية، ولا بالحديث الشريف (٤)، ويأخذ بأفصح اللغات، ويلحن ما عداها، ويكتفي بالسماع، ولا يهتم بالقياس مطلقاً. وهو في هذا يغلب عليه الاتجاه البصري (٥).

وثانيها كتاب الاقتضاب، لابن السيد البطلوسي وهو من الميسرين، وقد وضع كتابه في نقد كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، ونقضه، وهو يستدل على صحة رأيه بالقرارات القرآنية، وبالحديث الشريف، وبلغات العرب (٦).

وثالث ما يلقانا من كتب التصحيح اللغوي في الأندلس كتاب المدخل إلى تقويم اللسان، لابن هشام اللخمي. وكان له موقف متميز في كتابه هذا الذي ألفه للرد على لحن العوام للزبيدي (٧).

(١) انظر: درة العواص، ص ١٠١.

(٢) ينظر: شرح التسهيل ١٣١/٣: ١٣٣، وشواهد التوضيح، ص ١٢٩: ١٢٢.

(٣) شرح التسهيل ١٤٩/٢.

(٤) هكذا ذكر الدكتور عبد الفتاح سليم، في اللحن مظاهره ومقاييسه، ص ٢٠٢، أن ورود الحديث عنده فلاستئناس. لكن الدكتور حاتم الضامن، ذكر أنه استشهد بالحديث في (لحن العامة) والتهذيب بمحكم الترتيب، للاحتجاج. انظر: الاستشهاد بالحديث في اللغة النحو، حاتم الضامن، ص ٨. وهو الموقف نفسه للدكتور ألبير حبيب مطلق؛ إذ زعم أن الزبيدي استشهد بالحديث ستة وثلاثين مرة. انظر: الحركة اللغوية في الأندلس، ورقة ١١٣، ١١٤. ولا تعارض بين موقفي الدكتور عبد الفتاح سليم، والدكتور ألبير، إذ رأي الدكتور عبد الفتاح سليم مبني على أن هذا الاستشهاد للاستئناس، وليس لتقرير حكم نحوي، والأمر مطلق عند الدكتور ألبير.

(٥) انظر: اللحن في اللغة مظاهره، ومقاييسه، للدكتور عبد الفتاح سليم، ص ٢٠١: ٢٠٥.

(٦) انظر: المرجع السابق، ص ٢١٥: ٢٢٠.

(٧) انظر: المدخل إلى تقويم اللسان - ص ٩، تحقيق مأمون بن يحيى الدين أجان، وبحقيق الدكتور الضامن، ص ٢٦.

وبعض ما جاء في تنقيف اللسان لابن مكي الصقلي، فكان يستشهد بكلام المولدين إذا كان لهم علم باللغة. ويستشهد بلغات العرب. ولا يرد منها شيئاً، ويستشهد بالقراءات القرآنية. وقد لخص فكرة كتابه في الباب الذي عقده تحت عنوان: "باب ما تلحن فيه العامة، مما لا يحتمل التأويل. ولا عليه من لسان العرب دليل" (١).

ولم يرد عنه موقف من الاستشهاد بالحديث الشريف، لكن من كان مثله لا يستبعد منه أن يستشهد به (٢).

"وقد استخلصنا من تضاعيف كتاب ابن هشام نصوصاً كثيرة تدل على مذهبه في التوسع. فهو يقبل القليل (٣)، وما فيه لغتان (٤)، وما كان مستنداً إلى لغة ضعيفة (٥)، وما اختلف فيه أهل اللغة (٦)، وما كان جائزاً على أصول الكوفيين (٧) (٨).

ورابع كتب التصحيح اللغوي في الأندلس كتاب (التهذيب بمحكم الترتيب)، لابن شهيد الأندلسي، وقد أخذ عن الزبيدي. صاحب (لحن العوام)، وضمن كتابه كثيراً جداً من النصوص المفقودة من كتاب الزبيدي الذي بأيدينا (٩)، وهذا الكتاب يقول عنه الدكتور حاتم الضامن: " وكتاب (التهذيب بمحكم الترتيب) لما نشره أبو بكر بن محمد بن حسن الزبيدي في كلا وضعيه في لحن العامة بالأندلس. ليس صورة لمنهجية ابن شهيد وصبره على تنسيق وترتيب موادهما ترتيباً صحيحاً فصيحاً، وحسب، وإنما هو كنز لمن شاء أن يتصور المدى الذي بلغته الأندلس من الخضوع للتغير والتبديل في النطق (١٠) إذ هذا الضرب من الخطأ وأمثاله " إنما يؤخذ من الأفواه. ويقوم عن السماع. وليس من الفنون التي تستخرج من مظانها، وتُتطلب في مواضعها " (١١).

وخامس كتب التصحيح اللغوي كتاب السجستاني، وهو كتاب (لحن العوام). وأشار إليه

(١) المدخل إلى تقويم اللسان، تحقيق الجنان، ص ١١١، وبتحقيق الدكتور الضامن، ص ٢٣٢.

(٢) انظر: اللحن في اللغة، مظاهره ومقاييسه، ص ٢٠١: ٢٠٥.

(٣) انظر: المدخل إلى تقويم اللسان، ص ٤٩، تحقيق الضامن.

(٤) انظر: السابق، ص ٣٣، ٣٦.

(٥) السابق، ص ٦٢.

(٦) انظر: السابق، ص ١٠٣.

(٧) السابق، ص ١٢٠.

(٨) في العربية الفصحى واللحن، د. أحمد قدور، بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الأول، الجدل.

التاسع والستون، ص ٧٢، ٧٣.

(٩) وهو بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب، ونشرة أخرى بتحقيق الدكتور حاتم الضامن.

(١٠) انظر: الحركة اللغوية في الأندلس، دكتور ألير حبيب مطلق، ورقة ١٢٠.

(١١) الزيادات على كتاب إصلاح العامة، د. حاتم الضامن، ص ٢٢.

وسادس كتب التصحيح اللغوي في الأندلس، وآخرها كتاب (شواهد الوضوح لمشكلات الجامع الصحيح)، لابن مالك، وقد دافع عن صحة الحديث الشريف نحويًا وصرفيًا في هذا الكتاب. الشاميون والتصحيح اللغوي

ذهب عدد من الباحثين الى القول بوجود مدرسة نحوية في الشام ومنهم الدكتور خديجة الحديثي التي أقرت بوجود مدرسة مستقلة في الشام، كانت تعتمد على مدرسة البصرة اعتمادا كبيرا، ثم سلكت مسالك البغداديين، فأخذت تقارن بين الآراء، وترجع بعضها على بعض^(٥) وذكر موسى بني العليي ((..ان المذهب السائد في اقليمي مصر والشام، هو الاتجاه نحو المدرسة البصرية، وهذا المذهب — كما عرفنا سابقا — هو احد اتجاهات المدرسة البغدادية التي كان من اهم مقوماتها المزج والانتقاء...))^(١)

وخلص عدد من باحثينا الى اثبات وجود مدرسة مستقلة في النحو في مصر والشام .^(١)

مذهب ابن الحنبلي النحوي ومنهجه في التصحيح اللغوي

ينتمي ابن الحنبلي إلى مدرسة الشام النحوية في القرن العاشر الهجري ، وهذه المدرسة يغلب عليها الطابع البصري كما كان الحال في المدرسة البغدادية ، على حد قول الدكتور شوقي ضيف : " وسنرى المدرسة البغدادية منذ أبي علي الفارسي تمزج بين النحويين البصري والكوفي مؤثرة في الجملة آراء البصريين، واحتدتها في ذلك مدرسة الأندلسيين ومدرسة المصريين وكذلك احتذاها في هذا النهج كبار النحاة التالين في الشام والعراق وإيران"^(٢).

وقد غلب الطابع البصري على ابن الحنبلي في كتبه ورسائله النحوية ، ويظهر هذا من رسائله المسماة : (نور الإنسان في اشتقاق لفظ الإنسان) .
وهذه الرسالة علي و جازتها، كشفت عن قدرة الامام رضي الدين في مسائل اللغة و النحو. وتمكنه من منطق النحاة البصريين في المناقشة و الجدل، و تفتيد الآراء.

(١) انظر : لحن العوام ، للزبيدي ، ص ٧ ، وكتاب التهذيب بمحكم الترتيب ، لابن شهيد الأندلسي ، ص ٣٢ ، وقام الدكتور عامر بأهر الخيالي بجمع نصوص لحن العوام للسجستاني ، وبلغ مجموعها عنده ١٦٧ نصاً ، بالإضافة إلى ١٧ نصاً ، لم يرتضها جامع الكتاب . انظر : نصوص من كتاب لحن العامة لأبي حاتم السجستاني ، جمع وتوثيق ودراسة ، بحث منشور في حلقين. مجلة المجمع العلمي العراقي « السنة ١٤٢٩ - العدد ١٢٧ ، و السنة ١٤٢٩ - العدد ١٢٨ .

(٢) ينظر: المدارس النحوية (د. خديجة الحديثي): ٣٣٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ . على سبيل المثال .

الايضاح في شرح الفصل : قسم الدراسة / ١٥٠ - ١٥١ .

(١١) منهم : الدكتور شوقي ضيف في المدارس النحوية: ١٥٠ على سبيل المثال ، ، وعبد العال سالم مكرم في: المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة: ٦ ، ١٥ ، ١٧ - ١٨ ، ٢١... الخ، وعبد القادر رحيم الهيتي في: خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري: ٨ ، ٣٩ - ٤٠ ... الخ.

(٢)المدارس النحوية (ص: ٢٤١ ، ٢٤٢) .

و لقد طرح التادفي الخلاف بين البصريين و الكوفيين في مسألة اشتقاق لفظ (إنسان)، و فصله علي ثلاثة مذاهب (١)

الاول: مذهب البصريين أنه من الأتس-بضم الهمزة-لأن هذا الجنس يأتس بجنسه.
و الثاني، و هو مذهب بعض البصريين أيضاً، و هو انه من الأيناس، بمعنى الأبصار.
و الثالث، و هو مذهب الكوفيين، و هو أنه مأخوذ من النسيان و أصله: انسيان، ثم حذفت ياءه علي غير قياس.

و قد رفض ابن الحنبلي التادفي مذهب الكوفيين، محتجاً بأنه لا يعول عليه لأنه «لا مناسبة فيه إلا من جهة المعنى، بوساطة ما يعتري بهذا النوع الانساني من النسيان» (٢).

اتجاهات المصححين اللغويين في ضوء ما سبق بين المعيارين والوصفيين

اشتملت كتب التصحيح على ألوان مما تباينت فيه الآراء وتضاربت، بين من يخرّج كثيراً مما أورد على أنه لحن وخطأ من دائرة اللحن إلى تخوم ما يدخل في صحيح اللغة من باب تطورها الحنبلي، ومن باب قياس الغائب على الشاهد، وبين مشدد لا يسمح بغير ما وردت به الشواهد المحتج بها، وبين متوسط بين الفريقين.

لكن إخضاع المدونة الضخمة التي تتعدد المداخل إلى مسائلها للبحث والدراسة يتيح الفرصة للتوصل إلى الخيوط الفاصلة بين الفاسد والصحيح في ضوء المعرفة اللغوية، وهي المعرفة المتوصل إلى ملامحها عند المتكلم بالمنهج العلمي، لا بمجرد الاجتهاد الفردي (٣).

وقد اتخذ التأليف في التصحيح اللغوي أشكالاً ومسميات عدة، بحسب الغرض منها، فهي قد تكون في لحن العامة أو الخاصة، وسميت كتب أخرى من هذا النوع تلائم الغرض منها، فمن هذا الأسماء: (إصلاح المنطق)، (تنقيف اللسان)، (تقويم اللسان)، (تصحيح التصحيح وتحرير التحريف)، و(الجمانة في إزالة الرطانة)، (التنبيه على غلط الجاهل والنبية)، (فصيح الكلام) أغاليط الرواة)، وما إلى ذلك (٤).

وبالنظر في مصنفات اللحن المشرقية والمغربية، يلاحظ حركة دائبة من التصحيح وتصحيح التصحيح، وغالباً أو دائماً نجد كتاباً أو كتباً تسيّر نحو التيسير في مقابل عدد قليل من الكتب التي

(١) انظر : نور الإنسان في اشتقاق لفظ الإنسان لابن الحنبلي ، تحقيق : رشيد عبدالرحمن صالح العبيدي ، مجلة الأستاذ» عدد ٣- «(ص: ١٦٢) .

(٢) رخصي الدين الحنبلي التادفي و كتابه: نور الإنسان ، مجلة الأستاذ» عدد ٣- «(ص: ١٥٢ ، ١٥٣) .

(٣) انظر : تلقي كتب اللحن ، والتطور اللغوي ، مقال نشر بجريدة الرياض السعودية ، يوم الخميس ١١ جمادى ثمانية

(٤) الزبادات على كتاب إصلاح العامة ، د. عبد العزيز السابري . ص ١٢ .

توسم أو توصم بالتشدد، فكتاب الفصح لثعلب، وهو من الكتب الموصومة بالتعسير، واختيار الألفصح على ما عداه نجد له أو عليه مجموعة من الكتب الشروح التي تتجه غالباً لنقض مادة الكتاب، والرد على ثعلب.

ولا نكاد نجد كتاباً من نوعية الفصح إلا وبادر إلى نقده، ونقضه كتباً أخرى.

ويلاحظ أن كلا الاتجاهين المعيارى، والوصفى، أو التصحيح وتصحيح التصحيح يسيران متجاورين، وما زلنا حتى يومنا هذا نرى من يعتنق فكر كتاب الفصح، ومن يعتنق فكر تصحيح الفصح.

أما من حيث الغلبة، وانتشار أحد الفريقين، فيلاحظ من خلال النظر في كتب التصحيح اللغوي أن أكثر مؤلفاتها تتجه نحو التيسير، والمنسوب منها إلى التشدد قليل، أو قليل جداً مقارنة بالاتجاه الآخر.

ويلاحظ أن أياً من المعياريين المنسوبين للتشدد قد يرجعون عن رأيهم في آخره من زمانهم، وقد يتبرأون أحياناً من كتابهم، كما كان حال الأصمعي، وحال ثعلب في فصيحه، وسيأتي قريباً هذا. كما يلاحظ أن الكتاب ينشأ، وتنشأ عليه حركة نقدية مواردة، فكم من كتاب واحد وصم بسمه التشدد، قام عليه أكثر من كتاب، ولعل خير مثال على هذا، بالإضافة إلى كتاب الفصح كتاب درة الغواص للحريري، وهذا الكتاب لا يكاد أحد ينتصر له من علمائنا وشيوخنا القدماء، على كثرة شروحه، والعناية به. ولكن مع هذا نجد في أيامنا هذه من يتشدد تشدد الحريري في درته، ويستشهد بمادة الكتاب على خطأ هذا، وعوار ذلك، مما يؤكد أن الاتجاهين اتجاها التشدد واتجاه التيسير، ورفع الحرج فطرة، وقانون طبيعي، مع غلبة اتجاه التيسير غالباً.

وهذا في كتب أهل المشرق، ولا يختلف الحال عنه في كتب أهل المغرب، فعندما ألف ابن هشام اللخمي (ت ٥٧٧هـ) كتابه "المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان" للرد على كتابي "لحن العامة" لأبي بكر الزبيدي الذي سار تقريباً على النهج المشرقي في معالجة اللهجات العامية ينطلق ابن هشام من فكرة "توسيع دائرة الصواب" ليشمل اللغات العامية إذا ما دل على كلامها وجه يجعلها ضمن دائرة الصواب، ولهذا حاول أن يدافع عن عامية الأندلسيين ملتصماً لما يقولونه عذراً معقولاً أو وجهاً من الصواب، فقد رد على الزبيدي تصويبه "غلقت الباب" بدون تشديد الشائعة في لهجة الأندلس، ولم يعتبرها لحناً، وروى أن اللغوي ابن دريد حكى فيه: (غلقت) (بالتخفيف) وهي لغة ضعيفة، والأفصح في ذلك: غلقت ثم أغلقت، وهي وإن كانت لغة ضعيفة فلا يجب أن تلحن بها العامة، لأنها من كلام العرب، وإن قلت وضعفت^(١).

ومن هذا يتضح أنه يغلب على المصححين اللغويين ثلاثة اتجاهات، اتجاه معياري (متشدد) وآخر وصفى (ميسر)، وأخير معياري وصفى (معتدل).

(١) دواعي التطور اللغوي، مجلة الخميس، العدد ٨٨، ص ١٨٧، ١٨٨.

وهذه الاتجاهات الثلاثة غالباً ما تسير متلازمة، فكل اتجاه محافظ يغلب عليه التصحيح والحد من إمكانيات اللغة ينشأ إلى جواره أو رد فعل له اتجاه يغلب عليه التيسير، حتى يصل أحياناً إلى درجة التقصير. وتكون المرحلة الثالثة نتيجة طبيعية لهذين الاتجاهين، وهي مرحلة الاعتدال في عملية التصحيح اللغوي بحيث تأخذ وترفض من كلا الاتجاهين.

وتبدأ المسألة أولاً بالتصحيح، ثم يأتي بعد التصحيح تصحيح التصحيح، وهكذا دواليك. وهذه هي طبيعة الأمور، ولا يمكن فرض أي اتجاه من هذه الاتجاهات الثلاثة في زمن واحد بحيث يلغي الاتجاهين الآخرين، فكل الاتجاهات متواجدة، ولكن يكتب لاتجاه ما في فترة ما الغلبة والانتشار، حسب طبيعة العصر والمعاصرين له.

يقول الدكتور مطر: "وقد عرفت تلك المؤلفات بكتب لحن العامة، إلا أن اللغويين الذين تصدوا لتثقيف الألسن وتقويم اعوجاجها لم يتفقا على مقياس محدود على أساسه الحكم بالصحة أو الخطأ، فمنهم من سلك مسلكاً متشدداً بالوقوف عندما سمع وعدم الاعتراف إلا بالأفصح وما عداه فهو خطأ" (١).

وقد اتخذ التأليف في التثقيف اللغوي طابع الإقليمية أحياناً، على ما يقول القلقشندي: ((في أدب الكاتب لابن قتيبة نبذة من لحن أهل المشرق، وكتاب تثقيف اللسان لابن مكي التونسي موضوع في لحن أهل الغرب، وفصيح ثعلب مشتمل على كثير من هذا المقصد)) (٢).

وغلب على التصنيف في اللحن أول أمره سمة التشدد، ويمثل هذه النزعة "معظم المصنفين الأوائل، ومن تابعهم من المتأخرين، فابن السكيت، وابن قتيبة، وثعلب، والهروي، والزبيدي، والحريري، والجواليقي وابن الجوزي، وابن الإمام يمكن أن يعدوا ممثلين لهذا الاتجاه" (٣).

(١) انظر: لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، ص ٤٧.

(٢) صبح الأعشى ١/١٩٨، وقد أقام الدكتور عبد الفتاح سليم كتابه (اللحن في اللغة مظاهره ومقاييسه) على هذا الأساس، وهو تقسيم جيد جداً لو أن كتب التثقيف اللغوي كانت صورة صادقة لأخطاء أهل كل مصر وعصر، ولكن الحقيقة أن هذه الكتب في أكثرها يغلب عليها النقل من مصنفات الآخرين، ولهذا فقد نجد الأخطاء عند أهل الأندلس هي الأخطاء نفسها عند أهل العراق ومصر والشام، بالإضافة إلى ثبات هذه الأخطاء تقريباً مع اختلاف الأزمان المؤلفة فيها، مما يجعلني أرحب أن هذا الصنيع منهم يغلب عليه النقل من محاولة التصحيح اللغوي، ولهذا لم أتبع هنا هذا التقسيم الإقليمي الذي أشار إليه القلقشندي، وقام به أستاذي د. استاذ الدكتور عبد الفتاح سليم مكتفياً بما سأقوم به في الدراسة التطبيقية من دراسة الواقع اللغوي زمانياً ومكانياً في عصرين ومصريين مختلفين، تطبيقاً على كتابي درة الغواص للحريري، وعقد الخلاص لابن خنيلي.

(٣) في العربية الفصحى واللحن، د. أحمد قدور، بحث مشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الأول، العدد التاسع

ويتابع الحريري في درة الغواص مذهب هؤلاء العلماء حين رفض القياس على الشاذ والقليل، غير أنه نص أحياناً على تدرج الاستعمال الفصيح، ولم يتسرع في تخطئة الاستعمال الذي له سند من السماع وإن كان غير مطرد.

لقد عدّ المتشدّدون المعاريون كل كلام مخالف لكلام القبائل الفصيحة خطأ ولحناً^(١)، وكان الأصمعي من هؤلاء المعيارين المتشددين عندما أنكر التأنيث بالتاء في كلمة (زوجة) ورأى أن الأفصح فيها (زوج)^(٢) ولما قيل له إن ذي الرمة ينشد

أذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة
أراك لها بالبصرة العام ثاوي^(٣)

فقال: ذو الرمة طالما أكل الملح والبقل في حوانيت البقالين.

مع أن هذه الكلمة (زوجة) تبقى فارضة وجودها. وتظهر أهميتها في مسائل الإرث مثلاً للفرق بين الرجل والمرأة المشتركين في علاقة الزوجية، وكذا في مراسلات الدعاوي القضائية، والمراسلات الأسرية الرسمية، وغيرها.

قال ابن السّيد البطلاني ((وقد أنكر الأصمعي أشياء كثيرة كلها صحيح، فلا وجه لإدخالها في لحن العامة من أجل إنكار الأصمعي لها))^(٤).

وقال أيضاً: ((أشياء جعلها - (يعني ابن قتيبة) - من لحن العامة، وعول في ذلك على ما رواه أبو حاتم عن الأصمعي، وأجازها غير الأصمعي من اللغويين، كابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني ويونس وأبي زيد وغيرهم، وكان ينبغي له أن يقول: إن ما ذكر هو المختار أو الأفصح أو يقول: هذا قول فلان، وأما أن يجحد شيئاً وهو جائز من أجل إنكار بعض اللغويين له فرأي غير صحيح ومذهب ليس بسديد))^(٥).

وقد قارن أبو حاتم السجستاني بين مذهب أبي زيد الأنصاري ومذهب الأصمعي، فذكر أن من منهج أبي زيد أن كل شيء " صواب، وكان يتسع في اللغات، حتى ربما جاء بالشيء الضعيف، فيجري ذلك مجرى القوي، وكان الأصمعي مولعاً بالجيد المشهور، ويضيق فيما سواه " ^(٦).

(١) انظر: مناهج التصويب اللغوي، نعمة رحيم العزاوي، بحث منشور في مجلة المورد العراقية، المجلد السادس، العدد الأول، ص ١٤.

(٢) اراجع: الخصائص ٢/٢٩٥، والمدخل إلى تقويم اللسان، ص ٧٦، بتحقيق د. حاتم الضامن، في مجلة المورد العراقية، عدد ٣٨، لسنة ١٣٦٠ هـ.

(٣) البيت من الطويل، وهو لذي الرمة في ديوانه، ص ٢٧٨، بتحقيق عبد الرحمن المصطاوي، وفي ص ٨٧، بتحقيق كارليل هنري هيس، وفي ديوان ذي الرمة، بشرح التبريزي، ص ٤٥٢.

(٤) الاقتضاب ٢/٢٢٢.

(٥) السابق ٢/٥٠٦.

(٦) فعلت، وأفعلت، للسجستاني، ص ٨١، ٨٢.

ومن المعيارين المتشددين الفراء (ت ٢٠٧ هـ) في كتابه (البهاء فيما تلحن فيه العامة).

وثعلب (ت ٢٩١ هـ) في كتابه (الفصح)، ومع أن هذين العلمين من رؤوس المدرسة الكوفية وهي المدرسة التي اشتهرت بالترخص في أساليب القول إلا أن إمامين من أئمتها وهما الفراء وثعلب كانا من المتشددين في مفهوم اللحن، والذي يمكننا من الحكم على كتاب الفراء مع أنه يعد في حكم المعلوم ما ذكره ابن خلكان من أن كتاب الفصح لثعلب هو كتاب البهاء فيما تلحن فيه العامة للفراء، قال ابن خلكان: ((كتاب (البهي) وهو صغير الحجم ورأيت فيه أكثر الألفاظ التي استعملها أبو العباس ثعلب في كتاب الفصح وهو في حجم الفصح غير أنه غيره ورتبه على صورة أخرى وعلى الحقيقة ليس لثعلب في الفصح سوى الترتيب وزيادة يسيرة، وفي كتاب البهاء أيضاً ألفاظ ليست في الفصح قليلة، وليس في الكتابين اختلاف إلا في شيء قليل))^(١).

يقول السيوطي ((ألف ثعلب كتابه الفصح المشهور التزم فيه الفصح، والأفصح مما يجري في كلام الناس وكتبهم))^(٢).

أما منهج الفصح فقد وضحه ثعلب في مقدمة كتابه، يقول: ((هذا كتاب اختيار فصيح الكلام مما يجري في كلام الناس وكتبهم. فمنه ما فيه لغة واحدة والناس على خلافها، فأخبرنا بصواب ذلك. ومنه ما فيه لغتان وثلاث وأكثر من ذلك فأخترنا أفصحهن ومنه ما فيه لغتان كثرنا واستعملنا فلم تكن إحداهما بأكثر من الأخرى، فأخبرنا بهما))^(٣).

وقد وقع ثعلب أول ما وقع في اللحن، وأراد أن ينبه الناس على الفصح فوقع هو في القبيح. وذلك أنه قال: (فأخترنا أفصحهن) والقياس (فصاحن) كما نبه إلى ذلك ابن عقيل^(٤). وقد عابه الزجاج في كتابه هذا، فقال: ((خطأه فيها أكثر من صوابه، هذا أنت عملت كتاب الفصح للمتعلم المبتدئ وهو عشرون ورقة أخطأت في عشرة مواضع))^(٥).

وانتقده أيضاً علي بن حمزة البصري في ثلاثة وعشرين موضعاً^(٦).

ولتشد ثعلب في كتابه عابه كثير، حتى قال الزجاج: ((فما قرئ عليه كتاب الفصح بعد ذلك علمي ثم سنم بعد؛ فأنكر كتابه الفصح))^(٧).

(١) وفیات الأعيان ٦ / ١٨١.

(٢) المزهر ١ / ٢٠١.

(٣) الفصح لثعلب، ص ٢. وراجع: المزهر ١ / ١٨٥.

(٤) انظر: شرح ابن عقيل ٢ / ١٤٣.

(٥) المزهر ١ / ٢٠٣، ٢٠٤.

(٦) انظر: التنبهات له، ص ١٧٧، ١٨٨.

وقال ابن درستويه راداً عليه في اختياراته ومعاييرهِ في معرفة الفصح: ((وقد تلهج العرب الفصحاء بالكلمة الشاذة عن القياس، البعيدة من الصواب، حتى لا يتكلموا بغيرها، ويدعوا المنقاس المطرد المختار، ثم لا يجب لذلك أن يقال: هذا أفصح من المتروك))^(٢).

ومن المعيارين المتشددين الحريري (ت ٥١٠ هـ)^(٣) الذي "سأه أن تتغلب الأخطاء اللغوية على السنة الخاصة من المتقنين وأرباب العلم والأدب، فألف كتاب (درة الغواص في أوهام الخواص)، وهو يجري في كتابه على اختيار الأفصح وحده"^(٤). وقد قالوا عن الحريري إنه ((قد ضيق الأمر وحجّر واسعاً، ووجدوا أن كيداً من تخطئته غير صحيح))^(٥). وسيأتي إفراده بكلام مستقل قريباً.

ومن المعيارين المتشددين أيضاً الجواليقي، يقول في مقدمة كتابه التكملة: ((واعتمدت الفصح دون غيره من اللغات، فإن ورد شيء مما منعه في بعض النوارد فمطرح لقلته ورداعته، ووضعنا ما يتكلم به أهل الحجاز، وما يختاره فصحاء الأمصار، فلا تلتفت إلى قول من قال: يجوز؛ فإننا قد سمعناه))^(٦).

والخط الذي يجمع بين هذه الكتب هو اختيار الأفصح ورفض ما عداه. أما اللغويون الوصفيون المتساهلون فأغلبهم من المتأخرين ويمثلهم ابن مكي الصقلي (ت ٥٠١ هـ) في كتابه (تنقيف اللسان وتلقيح الجنان) وابن الحنبلي في كتابه (بحر العوام)^(٧)، وبين الكتابين تشابه ظاهر، ويظهر هذا من خلال تقسيمات كتاب تنقيف اللسان، فقد: "عقد في كتابه ثلاثة فصول هي أدخل في كتاب "بحر العوام"، وعناوينها: "باب ما تنكره الخاصة على العامة وليس بمنكر"^(٨)، و"باب ما جاء فيه لغتان استعمل العامة أفصحهما"^(٩)، و"باب ما العامة فيه على الصواب والخاصة على الخطأ"^(١٠). فكتاب ابن الحنبلي شبيه بهذه الفصول التي تصوب بعض ما يقوله العامة وتنسبه إلى الفصح، وإن تفاوتت درجاته في "الفصاحة.

(١) المزهر ١ / ٢٠٧.

(٢) تصحيح الفصح، ص ٣٦.

(٣) انظر: مناهج التصويب اللغوي، ص ١٤٤.

(٤) انظر: لحن العامة للدكتور عبد العزيز مطر، ص ٤٨.

(٥) تصحيح التصحيح د. إبراهيم السامرائي، مجلة المجمع القاهري، العدد ٨٧، ص ١٤١.

(٦) مقدمة التكملة للحواليقي، ص ٤٥، ٤٦، بتصرف يسير.

(٧) هذا في كتابه (بحر العوام) لكنه في كتاب (عقد الخلاص) يعد من المعتدلين.

(٨) ص ٢٢٧ : ٢٣٧.

(٩) ص ٢٤١.

(١٠) ص ٢٤٢ : ٢٤٦.

ومن الوصفيين المتساهلين ابن السيد البطلوسي (ت ٥٢١ هـ) في كتابه (الافتضاب في شرح أدب الكتاب) وهو شرح لكتاب (أدب الكاتب)، وهو يكثر من الاعتراض على ابن قتيبة في أدب الكاتب، وقد سبق شيء من اعتراضه عليه، وسبق أيضاً كيف اعترض على الأصمعي، وكلاهما من الموسومين بالتشدد في معيار الفصاحة، ومفهوم اللحن.

ومن الوصفيين المتساهلين ابن هشام اللخمي الأشبيلي (ت ٥٧٧ هـ) في كتابه (المدخل إلى تقديم اللسان وتعليم البيان) وهو القائل حكاية عن الأخفش: ((أنحى الناس من لم يلحن أحداً))^(١)، وبالغ ابن هشام في كتابه حتى صوب لغة العامة.

ومن الوصفيين المتساهلين الشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩ هـ) في كتابه (شرح درة الغواص) وقد أتى كلياً أو كاد على ما خطأه الحريري في درة الغواص.

ومجمل ما أخذ الخفاجي على الحريري في درة الغواص: تحجير الواسع، وسوء الرواية والدراية، واعتداده بالقياس، إذا تعارض مع السماع، واعتماده على المذهب البصري دون الكوفي غالباً، ووقوعه فيما نبه على خطئه^(٢).

ومن المعياريين الوصفيين المعتدلين الذين أخذوا من كلا الفريقين ابن مالك، ومن هؤلاء أيضاً ابن الحنبلي في شرحه على الدرة (درة الغواص) المسمى: (عقد الخلاص) فقد وافق المؤلف وخالفه، وبنى كتابه هذه الفكرة.

(١) المدخل إلى تقويم اللسان، ص ٢٨، تحقيق محي الدين الجنان، وص ٥٥، تحقيق د. حاتم الضامن

(٢) انظر: طريقة الخفاجي في التهذيب اللغوي، للأستاذ أنيس النقاشي، بحث منشور بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.

المجلد الثالث والعشرون: جمادى الأولى ١٣٦٧ - العدد ٢ - ص ٢٣٥ : ٢٣٨.

ابن الحنبلي سيرته ومنهجه

اسمه ونسبه^(١):

هو: محمد بن إبراهيم بن يوسف بن عبد الرحمن، رضي الدين أبو عبد الله القادري التاذقي الحلبي المعروف بابن الحنبلي.

كان لغوياً مؤرخاً شهيراً، فقهياً حنفياً، مشاركاً في الهيئة والحساب والأدب وغير ذلك.

مولده ووفاته

ولد سنة ثمان وتسعمائة، وتوفي في جمادى الأولى سنة إحدى وسبعين وتسعمائة.

شيوخه:

قرأ كتب الحديث والفقه والعربية على جماعة منهم: محمد الخنجري، وإبراهيم العمادي، وأحمد الهندي الدلوي، وموسى الرسولي، وشمس الدين محمد بن شعبان الديروطي، وعبد الرحمن بن فخر النساء، وأخذ التصوف والذكر عن عبد اللطيف الجامي، وقرأ القرآن على أحمد بن الحسين الباكري، ودرس وأفتى، وتلمذ عليه جماعة مثل: محمود البيلوني، وشمس الدين بن المنقار، وشهاب الدين أحمد بن الملا.

مؤلفاته:

لابن الحنبلي مؤلفات متعددة في فنون مختلفة، فهو نحوي ولغوي، ومؤرخ، وفقه، وفرضي، وطبيب. ويظهر هذا من مؤلفاته المتعددة التي هي عمدة في بعض الفنون، يقول صاحب شذرات الذهب: «وكان إماماً بارعاً متفتناً مسنداً مصنفاً وله مؤلفات في عدة فنون»^(٢).

وقد أحصى الأستاذ نهاد حسوبي الصالح مؤلفاته فبلغت سبعين مؤلفاً^(٣)، ما بين كتاب ورسالة. ومن مؤلفاته^(٤):

١. قرة العين إلى كنز العين المعنى.
٢. الفتح الجلي على شرح المصباح لسيدى على.
٣. فرع الأثبت في الحديث.
٤. الفوائد السرية في شرح المقدمة الجزرية.
٥. القول القاصم للقاسي قاسم.

^(١) انظر ترجمته في: الكواكب السائرة ٣/٣٨، وريحانة الألبا، ص ٨٦، وشذرات الذهب ٨/٣٦٢، وهدية العارفين

٢٤٨/٦، وإعلام النبلاء ٦/٥٦، والأعلام ٥/٣٠٢، ٣٠٣، ومعجم المؤلفين ٨/٢٢٣.

^(٢) شذرات الذهب ٨/٣٦٥.

^(٣) انظر: ابن الحنبلي وجهوده اللغوية ص ٣١ : ٤٨ . ٢٢٦

^(٤) انظر: الكواكب السائرة ٣/٣٩، وريحانة الألبا، ص ٨٦، وشذرات الذهب ٨/٣٦٥، وهدية العارفين ٢/٢٤٨،

وإعلام النبلاء ٦/٥٦، والأعلام ٥/٣٠٢، ٣٠٣، ومعجم المؤلفين ٨/٢٢٣.

٦. الكنز المظهر في استخراج المضمهر

٧. كنز من حاجي وعمى في الأحاجي والمعنى

٨. مخال الملاحه في مسائل الفلاحه

٩. مرتع الضيا ومربع ذوى الصبا

١٠. مطلوب الخاني في السفر السليماني

١١. موارد الصفا وموائد الشفا للقاضي عياض

١٢. نجوم المريد ورجوم المريد

١٣. در الحبيب في تاريخ أعيان حلب^(١)

١٤. تعليق على أنوار التنزيل للبيضاوي

١٥. فقهو الأثر في صفو علوم الأثر^(٢)

١٦. أنوار الحلل في شرح المنار لابن ملك في الأصول^(٣)

١٧. حاشية على شرح اللباب في الفقه الشافعي

١٨. حاشية على وقاية الرواية في مسائل الهداية في الفقه الحنبلي

١٩. ظل العريش في منع حل البنج والحشيش

٢٠. ذبالة السراج على رسالة السراج في الفرائض

٢١. حدائق الأزهار ومصابيح أنوار الأنوار

٢٢. ديوان شعر

وغير ذلك.

و"يلاحظ المرء أن التادفي عالم، بكل صنوف العلم المعروفة في عصره من عناوين كتبه التي ألفها، فقد جاءت بألوان المعارف و الفنون من رياضيات و أدب و تاريخ، و تصوف، و نحو و لغة، و منطق و فلسفة و حكم"^(٤).

ومن مؤلفاته اللغوية والنحوية:

١. التعريف على تغليط التطريف في شرح التصريف لابن هلال^(٥)، وذكره ابن الحنبلي في كتابه

^(١) (مطبوع) في دمشق بتحقيق محمود الفاخوري، ويحيى زكي عبارة.

^(٢) مطبوع.

^(٣) مطبوع.

^(٤) رضي الدين الحنبلي التادفي، وكتابه: نور الإنسان، رشيد عبدالرحمن صالح العبيدي، مجلة الأستاذ» عدد ٣٠٠ (ص: ١٤٠).

^(٥) انظر: كشف الظنون ١١٣٩/٢، وإعلام النبلاء ٦/٦٦.

درر الحبيب باسم التعريف بغلط التطريف^(١).

٢. مستوجبة التشريف بتوضيح شرح التصريف.

٣. مصباح الدجى في حرف الرجا، ويرد باسم مصابيح الدجى في حرف الرجا

٤. مغنى الحبيب عن مغنى اللبيب

٥. الفتح الجلى على شرح المصباح لسيدى على

٦. كحل العيون النجل في حل مسألة الكحل، ويرد باسم: حل عيون الفحل في مسألة الكحل^(٢).

٧. نور الإنسان في اشتقاق لفظ الإنسان.

حال اللغة العربية في بلاد الشام في عصر ابن الحنبلي

يتبادر إلى الذهن دائماً ضعف اللغة العربية فيما بعد العصر العباسي أو عصر الدويلات والإمارات، ذلك لأن حكام هذه الدول والإمارات في عصورها المختلفة الأيوبية والمملوكية والعثمانية كانوا من غير العرب، وقد وضع ابن الحنبلي حال اللغة في عصره والعصور التي قبله، فقال في مقدمة بحر العوام: « والذي حملني على تأليفه وتنضيده وتصنيفه فرط الحمية والغضب، وتوفر العصبية لهذا الجيل من العرب، وإن علك عوامهم الكلام علك اللجام، أو فرّت عنهم العربية وما بأيديهم منها سوى الزمام فرار السهام، أو كادت الفصاحة تعفو آثارها، والبلاغة تخبو مزاياها وأسرارها، لولا شرذمة اكتسبوا من علمي الفصاحة والبلاغة حصّة، وطائفة شربوا (من رحيق اللغة) ما دفعوا به الغصة^(٣)».

ولكن الصورة لم تكن قائمة كلها هكذا، بل كان هناك ما يخفف من قناعتها، ويبعث على التفاؤل بشأن اللغة، فكان الأيوبيون يشجعون على تعلم العربية والعناية بها، ولم يقتصر جهدهم في تلك المرحلة على تشجيع الحركة اللغوية، بل شاركوا فيها، وكان منهم الملوك الذين وصلوا إلى درجة الإفتاء في اللغة^(٤)، وتروي لنا كتب التراجم أن ابن بري أحد أهم شراح أو محشي درة الغواص منج الملك الكامل إجازة في فن النحو^(٥).

كما ذكرت كتب التراجم أخباراً عن الملك المعظم الذي لمع في هذا الفن فقد قرأ كتاب سيبويه نصاً وشرحاً، والإيضاح لأبى على الفارسي، والحماسة وشيئاً من كتب العربية على تاج الدين الكندي^(٦). وقد قرأ المعظم الأدب والنحو على تاج الدين الكندي، وأخذ عنه الكتاب لسيبويه، وشرح السيرافي

(١) انظر: كشف الظنون، ١١٣٩/٢.

(٢) نشره الدكتور الضامن ضمن (كتابان في النحو) ط . دار البشائر . وانظر: كشف الظنون ٦٨٧/١، ١٤٧٤/٢، وإعلام النبلاء ٦٦/٦.

(٣) بحر العوام ص ٩٥، ٩٦.

(٤) انظر: المدرسة النحوية في مصر والشام د. عبد العال سالم مكرم، ص ١١٣.

(٥) انظر: النجوم الزاهرة ٢٢٨/٦.

(٦) انظر: تراجم رجال القرنين السادس والسابع، لأبى شامة المقدسي ص ٩٧، ٩٨.

والحجة في القراءات لأبى على، وكان مما حفظه المفصل في اللغة للزمخشري، وكان يجيز من حفظه بثلاثين ديناراً، وله ديوان شعر، وتروى لنا كتب التراجم أن الملك المعظم عيسى^(١) لم يكن ينقطع في كل سفرياته وغزواته عن الاشتغال بالقرآن والجامع الكبير وعن الكتاب لسيبويه، ويقال: إنه كان يسير إلى أستاذه الكندي ماشياً وكتابه تحت إبطه من القلعة إلى بيت الشيخ، يقول ابن واصل: إنه رأى بنفسه خط الملك على كتاب سيبويه في عدة مواضع يقول في بعضها: «أتممته مطالعة وأنا بنابلس، ولأجل ذلك كان المعظم عيسى يقرب العلماء ويشجعهم على الاشتغال بالعلم والتصنيف والحفظ، وكان يقول: من حفظ الجامع الكبير للشيباني أعطيته مائة دينار، وحفظ الإيضاح للفرسي أعطيته مائتي دينار، فحفظ الكتابين جماعة كبيرة.

ويقول الدكتور مكرم: «إن احتضان الملك عيسى لعلم النحو والقراءات أفاد هذا العلم فائدة جلية، لأن الناس على دين ملوكهم كما يقولون، فقد أقبل المتعلمون على النحو، وفتح لهم الملك المعظم أبواب تعليمه وتعلمه، بل إنه جعل لكل من يحفظ كتاب سيبويه جائزة كبرى، فتنافس الطلاب على حفظه وتعاونوا على فهمه»^(٢)، مما كان له أثر كبير في إيجاد حركة نحوية حول الملك المعظم في فلسطين وسائر بلاد الشام، ومن مظاهر هذه الحركة أنه أمر العلماء حوله أن يجمعوا له كتاب في اللغة يشمل صحاح الجوهري والجمهرة لابن دريد والتهذيب للأزهري^(٣).

وأنشأ الملك المعظم المدرسة النحوية، وكان يدرس فيها الكتاب لسيبويه، وإصلاح المنطق لابن السكيت وملحة الإعراب للحريزي وغيرها^(٤).

ومن أشهر كتب النحو واللغة في هذه الفترة^(٥):

١. تحفة الطلاب ونظم قواعد الإعراب،
٢. الضوابط الحسان فيما يقوم اللسان لابن الهانم المصري المقدسي ت ٨١٥هـ.
٣. بلغة ذي الخصاصة في حل الخلاصة، والمناهل الصافية في حل الكافية، وهما من مصنفات الشيخ محمد بن محمد الأسدي المقدسي.
٤. شرح الأجرومية، أبو العزم محمد بن محمد الحملاوي.
٥. شرح قواعد الإعراب في عشر كراريس، لإبراهيم بن محمد بن أبي بكر القدسي.
٦. شرح ملحة الإعراب للحريزي.
٧. إعراب الألفية.

(١) انظر أخباره في: البداية والنهاية ١٣/١٤١، وتراجم القرنين السادس والسابع للمقدسي، ص ١٥٢، ووفيات الأعيان

٣/٤٩٤، وشدرات الذهب ٥/١١٥.

(٢) المدرسة النحوية في مصر والشام، ص ٤٥.

(٣) انظر: البداية والنهاية ١٣/١٤٢، والدارس في تاريخ المدارس، ص ٤٤٥.

(٤) انظر: خطط الشام، محمد كرد علي، ٦/١١٩.

(٥) انظر: العلماء في بلاد الشام في القرن العاشر الهجري على ضوء الكواكب السائرة ندى صعيدى ص ٥٩، ٦٠.

٨. شرح طيبة النشر في القراءات العشر.
٩. كتابان في النحو، وهما شجرة في النحو وأخرى في الصرف لأبى اللطف الحصكفى وهما من الكتب الجيدة.
١٠. الجوهرة في النحو للجزري.
١١. مرقاة اللبيب إلى علم الأعراب، إبراهيم بن موسى الكركي.
١٢. المنحة النجمية في شرح الملحة البدرية.
١٣. البهجة في النحو، لنجم الدين العامري.

وقد نالت ألفية ابن مالك شهرة واسعة وحظيت باهتمام بالغ من أهل العلم، فشرحها كثيرٌ منهم محمد بن محمد الأسدي المقدسي في كتابه (بلغة ذي الخصاصة في حل الخلاصة)، وأعربها آخرون مثل ابن الفقيه الرملي المقدسي ت ٨٤٤هـ، إضافة إلى من حفظها وهم كثير^(١).

ومن هذه الكتب التي نالت عناية واسعة في هذا العصر والذي قبله شرح شذور الذهب، وكتاب قواعد الإعراب لابن هشام، وقد حظي هذان الكتابان بكثير من الشروح والحواشي والتعليقات، فممن اهتم بكتاب شرح الشذور شمس الدين محمد بن أحمد الأنصاري، وبدر الدين بن حسن بن أبى بكر المقدسي المعروف بابن بقيقة، حيث صنف حاشية على شرح ابن هشام لكتاب الشذور وسماها: شرح الصدور بشرح زوائد الشذور^(٢).

ومن كتب التصريف التي نالت عناية فائقة كتاب العزى في التصريف الذي ألفه عز الدين أبو الفضائل عبد الوهاب الزنجاني المتوفى ٦٥٥هـ^(٣)، عنى به جماعة من العلماء في بيت المقدس منهم أبو الفداء إسماعيل بن جماعة الكناني المقدسي، وهناك أيضاً حاشية على شرحه لشمس الدين محمد الغزي.

كما نالت الكافية والشافية لابن الحاجب عناية العلماء في هذه الفترة. ومن هذه الكتب ألفية ابن معط في النحو وهى المسماة الدرة الألفية في علم العربية. ويلاحظ أن هذه الكتب هي أكثر ما يرد في كتب ابن الحنبلي، والتي يعتمد عليها في مناقشة المسائل النحوية والصرفية في كتب التصحيح اللغوي التي ألفها.

كما يلاحظ الوجود القوي للحريري في كتب هذه الفترة، فكانت ملحّة الإعراب، وشرحها له من الكتب الأساسية التي تدرس وتدرس في فترة ما قبل ابن الحنبلي، حتى أن مجير الدين الحنبلي حصل على الإجازة في ملحّة الإعراب^(٤).

ومع هذه العناية باللغة والنحو خاصة في هذه الفترة لا أحب أن يفهم الكلام على أنه عصر قوة

(١) انظر : تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان ، ٥ / ٢٧٧ : ٢٩١ .

(٢) انظر : كشف الطنون ، ٢ / ١٠٢٩ .

(٣) انظر : السابق ، ٢ / ١١٣٨ ، ١١٣٩ .

(٤) انظر : الأئس الجليل خير الدين ١٨٩/٢ .

وازدهار لـ اللغة، وإنما أردت أنه ليس عصر ضعف واضمحلال، وواضح من هذه الكتب والتسروح أن أغلبها قائم على التكرار، وكانت المادة التي جمعها سيبويه، ومن جاء بعده قد تعاورها العلماء في هذه الفترة - ما بعد القرن الخامس - بالتبويب والعرض في أشكال مختلفة، فألفت الشروح وشروح الشروح، والمختصرات، ومختصرات المختصرات التي اختفى منها الكثير^(١).

ويرى الأستاذ على النجدي ناصف أن الحركة النحوية بعد سيبويه كانت: «حركة دائبة، واكنها دائرية تتكرر وتتزايد، وتختصر مطولاً وتطيل مختصراً، وتنظم منشوراً، وتحل منظوماً، وتشرح متناً وتعلق على شرح»^(٢).

ابن الحنبلي والتصحيح اللغوي:

اهتم ابن الحنبلي اهتماماً كبيراً بالتصحيح اللغوي في عصره، وأنشأ في هذا عدة مؤلفات، تتصل بالتصحيح والتقويم "و لقد كانت للمؤلف عناية واضحة، بلهجات العوام ولا سيما لهجة بلده، حلب، وم الشام، فكتب فيها كتابين هما بحر العوام الذي طبعه عز الدين التنوخي سنة ١٩٣٧ م بدمشق. و سبهم الألفاظ في وهم الألفاظ"^(٣).

ومؤلفاته في التصحيح اللغوي بترتيب زمان تأليفها هي: سبهم الألفاظ في وهم الألفاظ، وبحر العوام فيما أصاب فيه العوام، والدر الملتقط في تبين الغلط، وخاتمه كتيه في هذا المجال: عقد الخلاص في نقد كلام الخواص، وكلها مطبوعة محققة، إلا الدر الملتقط في تبين الغلط. وقد أشار ابن الحنبلي إلى ترتيب هذه الكتب في خاتمة عقد الخلاص فقال: «وهنا انتهى التسلام وانكشف الظلام عن عقد الخلاص في نقد كلام الخواص، ومن وقف على كتابنا: سبهم الألفاظ في وهم الألفاظ، وكتابنا بحر العوام فيما أصاب فيه العوام فكأنما نشط من عقل، واتسع له مجال المقال، فخطأ مرة وصوب، وسرى السرى كرة وأوب وبان له أن منشور ذلك الكتاب ومنثور ذاك الخطاب برزخ قد وقع في البين فيما بين هذين الكتابين»^(٤).

أما سبهم الألفاظ في وهم الألفاظ - وقد يرد باسم سهل الألفاظ في وهم الحفاظ، ويورد أيضاً باسم سهل الألفاظ - فيقول الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه: لحن العامة والتطور اللغوي^(٥): «وهذا الكتاب أيضاً ذيل على درة الغواص للحريري»^(٦).

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، ١٥٩/٥.

(٢) سيبويه إمام النحاة، على النجدي ناصف، ص ٣٥.

(٣) نور الإنسان رضي الدين الحنبلي التادفي وكتابه: نور الإنسان الأستاذ، عدد ٣- (ص: ١٤٢).

(٤) عقد الخلاص ص ٣٥٩.

(٥) لحن العامة والتطور اللغوي ص ٢٩٨.

(٦) ابن الحنبلي وجهوده اللغوية ص ٤٠.

وأما بحر العوام فيما أصاب فيه العوام^(١)، فهو رد على درة الغواص للحريري.
وخاتمة كتبه في التصحيح اللغوي عقد الخلاص في نقد كلام الخواص، وهو رد على الغواص
للحريري.

وواضح أن كتب ابن الحنبلي ورسائله في التصحيح اللغوي كلها تدور حول درة الغواص للحريري
وتأتي أهمية هذه الكتب والرسائل من كونها - فيما أعلم - هي كتب التصحيح اللغوي الوحيدة في بلاد
الشام، فلم يصلنا منها قديماً سوى هذه الكتب والرسائل، وإن شارك علماء الشام المحدثون في هذه
الصناعة صناعة التصحيح اللغوي، وأول هذه المؤلفات هو كتاب أو رسالة:

سهم الأحاظ في وهم الألفاظ: وورد للكتاب أسماء متعددة، منها سهم الأحاظ في وهم
الألفاظ^(٢)، وسهل الحفاظ في وهم الألفاظ^(٣)، وسهم الأحاظ، وهو أشبه ما يكون برسالة منه أن يكون
كتاباً، فهو يقع في عشر ورقات، ويتسم بالإيجاز الشديد.

وقد أشار ابن الحنبلي نفسه إلى اسم كتابه في مقدمته إذ قال: «وسميته: سهم الأحاظ في وهم
الألفاظ»^(٤).

والكتاب ذيل على درة الغواص للحريري، وقد نص المؤلف على ذلك فقال: «لَمَّا احْتَجَّ أَهْلُ
الْأَدَبِ، وَطَمَحَ نَظَرُ مَنْ تَأَدَّبَ إِلَى كِتَابِ (دُرَّةِ الْغَوَاصِ فِي أَوْهَامِ الْخَوَاصِ) لِلْأَدِيبِ الْأَصْمَعِيِّ وَالْأَرِيبِ
الْأَلْمَعِيِّ أَبِي مُحَمَّدٍ الْقَاسِمِ بْنِ عَلِيٍّ الرَّبِيعِيِّ، كَسْبِي فِي دَارِ النِّعَمِ حَرِيرًا، وَلَا بَرَحَ طَرَفُهُ فِي مَقَامِ التَّنْعَمِ
بِهَا قَرِيرًا، لَمَّا أَنَّهُ فِي عَقْدِ الْفَنُونِ الْأَدَبِيَّةِ، دُرَّةٌ وَفِي عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ غَرَّةٌ، تَمِيلُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ بِالْمَرَّةِ،
وَتَطْمَحُ إِلَيْهِ الْأَنْظَارُ لَمَّا أَنَّهُ قَرَّةٌ، وَإِنْ كَانَ لِلْمَهَرَةِ فِي مَضْمَارِ الْقَدَحِ فِي مَهَرَةٍ، وَلِلْأَذْكَاءِ فِي هِجَاءِ
الْبَحْثِ فِيهِ سَيْفٌ ذُو شَهْرَةٍ أَحْبَبْتُ أَنْ أُذِيقَهُ تَذْيِيلًا، وَأَضْمُ إِلَى اسْتِعَارَتِهِ الْمَكْنِيَّةِ مِنِّي تَخْيِيلًا فَشَمَرْتُ
الذَّيْلَ، وَوَضَعْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى هَذَا الذَّيْلَ تَذْكَرَةً لِإِخْوَانِي وَتَبْصُرَةً لَجَلَّةٍ خَلَاتِي»^(٥).

والكتاب صغير في حجمه، ويعالج أكثر من خمسين ومائة كلمة، ويكون اعتماده في التصحيح
على أقوال العلماء والنحاة واللغويين^(٦).

اعتمد ابن الحنبلي في كتابه هذا على كتب كثيرة منها أدب الكاتب، والفاخر، والبارع، والصباح،
والكلم النوايغ، والتكملة والذيل والصلة، ومغنى اللبيب، والقاموس المحيط.

(١) مطبوع بتحقيق التنوخي، عن مجمع اللغة العلمي بدمشق، وله طبعة أخرى بتحقيق الدكتور شعبان صلاح، وطبعة

أخرى بتحقيق الدكتور الطنطاوي الطنطاوي جريل.

(٢) ينظر: إعلام النبلاء ٦/٦٦.

(٣) انظر: السابق نفسه.

(٤) سهم الأحاظ ص ٢٤.

(٥) السابق ص ٢٤، ٢٥.

(٦) انظر ابن الحنبلي وجهوده اللغوية ص ٥١.

ونقل عن ابن برى، والنووي، وأبى حيان ت ٧٤٥هـ دون ذكر أسماء كتبهم^(١).

ويلاحظ في هذا الكتاب أن منهجه فيه يقوم على اختيار الفصح والأفصح، متبعاً في هذا الحريري، جاعلاً ما نص عليه من أوهام الألفاظ، كما جعل الحريري ما أودعه كتابه من أوهام الخواص، وقد قصر فيما يبدو كتابه أو رسالته هذه على وهم اللفظ، أما التراكيب فلم يتعرض لها. ويبدو ابن الحنبلي هنا متشدداً في معياره كحال الحريري، لكنه يخالف هذا المنهج في بقية كتبه المتعلقة بدرة الغواص، وهى بحر العوام والدر الملتقط، والعقد الخلاص.

فمن مظاهر التشدد في سهم الألفاظ أنه يأخذ بالأفصح، وإن كان ما عابه فيه خلاف بين العلماء، وهذا منهج الحريري الذي عابه ابن الحنبلي في بقية كتبه، ومن أمثلة تشدده وأخذه بالأفصح عنده قوله في السبحة: «فما وهموا فيه وغلطوا (السبحة) بضم السين والصحيح فتحها وهى بالسين أفصح من الصاد بتصريح من صاحب القاموس^(٢)»^(٣).

ومن ذلك " (الأنموذج) ففي القاموس^(٤) النمودج بفتح النون مثال الشيء مُعَرَّبٌ والأنموذج لحنٌ ولا عيزة بقول من سبقه كصاحب المغرب وكالتفتازاني حيث جزم في مباحث الفصاحة من شرح المفتاح بأن الأنموذج مُعَرَّبٌ نموذه أو نموذج مقرأً للسكاكي على استعماله في مفتاحه^(٥). ومن ذلك " (انعم) قال في القاموس^(٦) وقول المتكلمين انعم لحنٌ ومن ذلك قولهم (الله) بحذف الألف فقد جزم البيضاوي^(٧) أنه لحنٌ وجعل الحذف في قوله:

ألا لا بارك الله في سهيل إذا ما الله بارك في الرجال^(٨)

لضرورة الشعر وهو فيه في المصراع الأول كما لا يخفى^(٩).

وواضح ما في هذا الكتاب من جرى على نهج الحريري، فقد اختار ابن الحنبلي الأفصح، كما عبر هو نفسه، وذكر مسائل فيها خلاف بين اللغويين، ومع هذا جعل ما اختاره هو الصواب، وبقيتها لحن، وأوّل ما ورد في الشعر مما يخالف كلامه فجعله لحناً.

ثاني كتب ابن الحنبلي في التصحيح اللغوي هو:

بحر العوام فيها أصاب فيه العوام:

(١) انظر دراسة الدكتور الضامن لسهم الألفاظ ص ١٦.

(٢) هو الفيروزآبادي : انظر : القاموس ٢٦٦/١.

(٣) سهم الألفاظ ص ٢٤.

(٤) انظر القاموس ٢١٠/١.

(٥) سهم الألفاظ ص ٢٥.

(٦) انظر القاموس ٣٨٣/٢.

(٧) في تفسيره ٣/١.

(٨) البيت من الوافر ، وورد غير منسوب في شرح الحماسة ، للسرزوقي ، ١ ، ٣٣٢ ، والخزانة ، ١٠ ، ٣٤١ .

(٩) سهم الألفاظ ص ٢٨ ، ٢٩ .

ويرتبط هذا الكتاب ارتباطاً وثيقاً بدرة الغواص للحريري، وهو وإن كان يحمل عنواناً يخص العوام فيما يتصل بالحن إلا أنه شرح أو كالشرح لدرة الغواص، والدليل على هذا كثرة ذكره لدرة الغواص في المسائل التي يوردها، ومن هذا قولهم: «أب (،) أخ (» بتشديد الباء والخاء فيهما، وبتخفيفهما إذ هما لغتان فيهما^(١)، على ما ذكر في كتاب عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ^(٢). ومن ذلك: قولهم: هذا أبيض من ذلك، أي أشد بياضاً منه، مع أن أفعل التفضيل لا يبني قياساً من لون^(٣).

ومن ذلك قولهم: " (قدم سائر الحاج) و(استوفى سائر الخراج)، مستعملين (سائراً) في ذلك بمعنى: (الجميع)، وزعم الحريري أن ذلك من الأوهام الفاضحة والأغلاط الواضحة، وأن (سائراً) في كلام العرب بمعنى الباقي، وتعقبه ابن بري فأثد شواهد كثيرة تدل على مجيء (سائر) بمعنى جميع^(٤).

ومن ذلك قولهم: " (الفاكهاني) لبائع الفاكهة، حكاه صاحب القاموس، وعزاه الأنصاري إلى كتب اللغة رداً على الحريري، وليس كل صيغة منسوب خالفت القياس فهي خطأ، بدليل صنعاني وحلواني^(٥).

أما دلالة (العوام) هنا فليس المقصود بها خثارة الناس من الباعة والجاللين وأصحاب المهن الدنيا، وإنما المقصود بهم إما الخواص الذين تأثروا ببعض العوام فنزلوا عن مرتبة الأدباء والعلماء في الجري على الأفصح، والفصيح، وإما أن يكون المراد بهم العوام الذين ينطقون بما هو دون الفصيح، وهم العوام الذين ذكرهم الحريري في خطبة درة الغواص.

والذي جعلني أقول هذا ما صدر به ابن الحنبلي خطبة كتابه هذا فقال: «أضع تأليفاً هو نفسه درة غواص، وبالنظر إلى سعة خواص، مشتملاً على ما يعتقد الجاهل أو الناس أنه من أغلاط عوام الناس، وليس في شيء من الغلط، ولا هو في نفس الأمر من ذلك النمط، موسوماً ببحر العوام فيما أصاب فيه العوام»^(٦).

ولا تخفى الدلالة الواضحة من كلامه على ارتباطه بدرة الغواص للحريري، وإن كان يحمل عنواناً مثل أوهام الخواص، فبحر العوام كما يقول ابن الحنبلي هو في نفسه: (درة غواص) يحتاج غواصاً يغوص في بحر، والارتباط واضح هنا بين (عوام) ابن الحنبلي و(عوام) الحريري الذين ذكرهم في خطبة كتابه، فقال: «فإني رأيت كثيراً ممن تسنموا أسنمة الرتب، وتوسموا بسممة الأدب،

(١) انظر : درة الغواص ، ص ٢٠٣ ، وبحر العوام ، ص ٩٦ .

(٢) انظر : عمدة الحفاظ ، للسمين الخلي ، مادة (أ ب ب) ١ / ٤٤ ، ص ٤٥ .

(٣) انظر : درة الغواص ص ٣٨ ، وبحر العوام ، ص ١٥٢ .

(٤) انظر : درة الغواص ، ص ٤ ، وبحر العوام ، ص ١٨٠ .

(٥) انظر : درة الغواص ، ص ١١٢ ، وبحر العوام ، ص ٢٧٢ ، وراجع : عقد الخلاص ص ٢١٨ .

(٦) بحر العوام ص ٩٥ .

قد ضاهوا العامة في بعض ما يفرض من كلامهم، وترعف به مراعى أقلامهم»^(١).

ويبدو أن ابن الحنبلي أراد الدفاع عن هؤلاء العوام الذين يرى الحريري أنهم أثروا في الخواص، فأنزلوه عن مرتبة الفصاحة.

وعلى هذا فليس صحيحاً ما ذكره الدكتور رمضان عبد التواب من أن: «من فوائد هذا الكتاب اطلاعنا على لهجة بلاد الشام الشمالية في القرن العاشر، وكثير من هذه اللهجة لا يزال دائراً على الألسنة إلى اليوم في حلب ودمشق وقراها، وبعضها حي في فلسطين»^(٢).
فالكاتب ليس موضوعاً للهجات العامة، ولا عوام الناس من الباعة والجائلين وغيرهم من أصحاب المهن.

بل إن الكاتب ينبغي ألا يكون مرتبطاً بلهجة أهل الشام الذين ذكرهم الدكتور رمضان عبد التواب؛ لأنه على هذا مرتبط بكتاب درة الغواص، ودرة الغواص مؤلف أصلاً بحسب كلام الحريري لخواص عصره من أهل العراق، وإن كان هذا التصنيف المكاني يحتاج مراجعة.

يقول الدكتور عبد الفتاح سليم: «من أصحاب الكتب من لم يكن له جهد كبير في ملاحظة أخطاء عصره وبلده، وإنما حصر همه في جمع آراء أساتذته، وتلخيصها أو شرحها، ومن الخطأ البين أن تدرس هذه الآراء على أنها له، ولعصره وبلده»^(٣).

وقد صرح ابن السيد البطليوسي بهذا المعنى عندما قال عن أدب الكاتب لابن قتيبة: «وجميع ما أورده ابن قتيبة في هذا الباب إنما نقله من كتاب يعقوب بن السكيت في المعاني، وفيه أشياء غلط فيها يعقوب، واتبعه ابن قتيبة على غلطه، وأشياء يصح أن تتأول على غير ما قاله»^(٤).

ويقول الدكتور قدور: «ومما يقلل من إمكانية التصنيف المكاني أيضاً أن بعض المصنفين كانوا ينقلون معظم الأمثلة من المصنفين السابقين، لا من بيناتهم أو مما وقفوا عليه حصراً، كما أن بعض الشراح وأصحاب الردود تناولوا مصنفات متعددة بالنقد والرد على الرغم من اختلاف البيئة، من ذلك أدب الكاتب وشرحه الاقتضاب، فالكاتب الأصلي ظهر في العراق، على حين أن صاحب الشرح أندلسي، ومنه أيضاً درة الغواص وشرحها، فالدرة من لحن الخواص في العراق، كما قصد مؤلفها، أما شرحها والرد عليها فقد ظهر في مصر للخفاجي بالإضافة إلى شروح أخرى وحواش لابن برى المصري وغيره من لغوي الشام، ويدل هذا على أن التصنيف في اللحن غداً جانباً من جوانب الدرس اللغوي المنظم والواضح المقاصد»^(٥).

وقد وقع الأستاذ عز الدين التنوخي محقق الكتاب في وهم أن الكتاب هو من قبيل تصحيح

^(١) درة الغواص ص ٣.

^(٢) لحن العامة والتطور اللغوي ص ٢٩٦.

^(٣) اللحن في اللغة مظاهره ومقاييسه، القسم الأول ص ٢٦.

^(٤) الاقتضاب ٢/٢٦٩.

^(٥) مصنفات اللحن والتتقيف اللغوي ص ٥٠٧، ٥٠٨.

العامية التي هي قسيمة الفصحى، فقام في مقدمة تحقيقه الكتاب بالدفاع عن نفسه فقال: «ولقائل أن يقول إن المصنف ليقوى برسالته هذه الضعيف، ولا يداوى المريض، أو يقوم المعوج من لغة العامة، وكان هذا يرد لو أن المؤلف لم ينص على درجات اللهجات فيبين القوى والأقوى، والضعيف واللُغِيَّة التي تروى، وبذلك يتمكن دارس الكتاب من معرفة مراتب الخطأ في لغة الشام، والصواب...»^(١).

والأمر نفسه وقع فيه الدكتور محمود فهمي حجازي، حين جعل كتب الإصلاح اللغوي مثل: ما تلحن فيه العامة للكسائي ت ١٨٩هـ، وإصلاح المنطق لابن السكيت ت ٢٤٤هـ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ت ٢٧٦هـ، ودرة الغواص للحريزي ت ٥١٦هـ، والتكملة للجواليقي ت ٥٣٩هـ، وتقويم اللسان لابن الجوزي ت ٥٧٩هـ، ويرجع قسم كبير من المادة المسجلة في كل كتاب من هذه الكتب إلى مؤلف كل كتاب منها، ولذا يمكن التعرف منه على جوانب الاستخدام اللغوي في جنوب العراق من القرن الثاني حتى القرن السادس الهجري.

وقد وصلت إلينا من المغرب والأندلس و صقلية مجموعة كتب في لحن العامة والتثقيف وأقدم هذه الكتب لحن العوام، لأبى بكر الزبيدي ت ٣٧٩هـ، وهو كتاب أندلسي، ولكن أكبر هذه الكتب هو كتاب تثقيف اللسان لابن مكي الصقلي ت ٥٠١هـ الذي يصور لهجة صقلية عربية آنذاك وقد وصل من تونس كتاب بعنوان الجمانة في إزالة الرطانة منسوباً لابن الإمام ت بعد ٨٢٧هـ، وأما مصر والشام فلا نعرف عنهما كتباً في لحن العامة والتثقيف اللغوي إلا من القرنين التاسع والعاشر للهجرة، فكتب ابن الحنبلي ت ٩٧١هـ، قد تكون المصدر الوحيد للتعرف على لهجة الشام في العصر الإسلامي ولا تزال أكثر هذه الكتب مخطوطة، والأثر المصري الوحيد الذي وصل إلينا في لحن العامة هو دفع الإصر عن كلام أهل مصر، ليويسف المغربي ت ١٠١٩هـ، وقد حاول ابن الحنبلي والمغربي أن يبحثا جوانب من لهجة الشام ومصر بهدف إثبات عروبتها والدفاع عنها، وبذلك تختلف هذه الكتب عن مجموعة كتب لحن العامة المؤلفة في العراق والأندلس^(٢).

منهج ابن الحنبلي في بحر العوام:

وضح ابن الحنبلي منهجه، ونص عليه في مقدمة خطبته للكتاب، فقال: «والذي حملني على تأليفه وتنزيده وترصيفه فرط الحمية والغضب، وتوفر العصبية لهذا الجيل من العرب، وإن علك عوامهم الكلام علك اللجام، أوفرّت عنهم العربية وما بأيديهم منها سوى الزمام فرار السهام، أو كادت الفصاحة تغفو آثارها، والبلاغة تخبو مزايها وأسرارها، لولا شزيمة اكتسبوا من علمي الفصاحة والبلاغة حصّة، وطائفة شربوا (من رحيق اللغة) ما دفعوا به الغصة»^(٣).

^(١) مقدمة تحقيق بحر العوام، للتوحي، المنشور في مجلة المجمع الدمشقي، المجلد الخامس عشر، ذي الحجة: ١٣٥٥هـ العدد

٤، ٣ ص ٩٤، ٩٣.

^(٢) علم اللغة العربية ص ١١٦.

^(٣) بحر العوام، ص ٩٥، ٩٦.

تناول المؤلف ثلاثة وعشرين ومائتي قول^(١)، في هذا الكتاب، ويظهر من هذه الأقوال معرفته باللهجات العربية، ويرجع إليها الكثير من كلام العامة.

واعتمد المؤلف في رده على الحريري على مصادر متعددة منها حاشية ابن برى، وتهذيب الخواص لابن منظور، وأدب الكاتب والصحاح، والقاموس المحيط وشفاء الغليل، ومغنى اللبيب وشرحه، للداميني وغيرها من الكتب التي يذكر مؤلفها أحياناً ولا يذكره أحياناً أخرى^(٢).

وقد تنوعت شواهد السماعية، فاستشهد بالقرآن الكريم وقراءاته، بما فيها القراءات غير السبعية أربعاً وخمسين مرة^(٣).

وبالحديث الشريف أربعاً وعشرين مرة^(٤).

وبالأشعار أو بعضها وبالأرجاز ست ومائة مرة، وليست كلها مما يستشهد به، فمنها ما يقع الاحتجاج به، ومنه ما يورده على سبيل الاستئناس، أو التقوية يل إنه قد يورد شعراً له نفسه^(٥).

وقد استشهد بالأمثال والأقوال السائرة تسع مرات^(٦).

عقد الخلاص في نقد كلام الخواص:

هذا الكتاب رد على درة الغواص، إذ خطأ ابن الحنبلي صاحب الدرة في بعض ما جاء وذلك في مؤلف مفقود سماه: الدر الملتقط في تبين الغلط، ثم أراد أن يفصل القول في ذلك ويضم إليه ما وافق الحريري فيه فألف: عقد الخلاص في نقد كلام الخواص^(٧).

منهجه:

بدأ ابن الحنبلي كتابه بعد البسطة والتحميد بتبيين سبب تأليفه الكتاب قائلاً: قد كنت في غابر الأزمان وسالف الأوان التقت نبدأ يسيراً، واستخرجت لمن كان له الأرب إلى شمس علم الأدب إكسيراً من كتاب درة الغواص في أوهام الخواص، للأديب الأصمعي، والأريب الألمعي أبي محمد القاسم بن علي الحريري الربعي، كسي في الجنة سندساً وحريراً، وأولي بعد الأولى من الله خيراً كثيراً، وسميته بالدر الملتقط في تبين الغلط، وقد عن لي الآن، والقلب من دميم حميم الهموم ملآن أن أتعب ما التقت، وأبسط من الكلام ما إن بسطه لك انبسطت جاعلاً ما التقت في باين هما بمثابة كتابين:

^(١) انظر: دراسة الدكتور شعبان صلاح، لبحر العوام ص ٥٢، وقد جعلها الأستاذ نهاد حسوي صالح عشرين ومائتي قول.

^(٢) انظر ابن الحنبلي وجهوده اللغوية ص ٢٦، ولحن العوام والتطور اللغوي ص ٢٩٧.

^(٣) انظر مقدمة التتوخي، ص ٩٤، ومصادر المصنف، ضمن فهرس بحر العوام، للدكتور صلاح شعبان، ص ٣٠٦.

^(٤) انظر: دراسة الدكتور شعبان صلاح لبحر العوام ص ٤١.

^(٥) انظر: السابق نفسه والصفحة نفسها.

^(٦) السابق ص ٤٢ : ٤٩.

^(٧) السابق ص ٤١.

^(٨) ينظر: ابن الحنبلي وجهوده اللغوية ص ٣٥.

الباب الأول: في رد بعض مما حصله صاحب الأصل فأصله.

الباب الثاني: في قبول شيء مما أجمله هناك أو فصله، ضاماً إلى كليهما، لترتاح النفوس إليهما من مجمل الكتب اللغوية ما هو لمن حصل أرفع محصل من صحاح جواهره هي كفاية للمت حفظ، وفراند فوائد يعرب عن مغربه المتلفظ، ناسجاً على منوال الحريري في ذلك، ناهجاً في تحبير التعبير فسيح المسالك، مسمى ما ألفته كأنه وليد ألفته، بعقد الخلاص في نقد كلام الخواص^(١).

وكان القسم الأول من الكتاب الذي يحوى ما خالف الحريري فيه، أما القسم الثاني فهو ما وافق الحريري فيه.

كان ابن الحنبلي يبدأ بعرض كلام الحريري ثم يعرض رأيه، وأحياناً يذكر الرد ثم يذكر صاحبه، وأحياناً أخرى يذكر صاحب الرد ثم الرد، وكان يذكر أكثر من رأي، ويرجح بينها، وأحياناً يترك الترجيح.

وقد يشرح قسماً من الأبيات التي يستشهد بها، ويستطرد في المسألة الواحدة، فيذكر مراتب الفصاحة عند تحدّثه عن لفظ أو تركيب ما.

أما مصادر الكتاب فنقل ابن الحنبلي كثيراً من الأقوال عن النحويين بصريين وكوفيين، ونقل عن اللغويين والمفسرين والمحدثين، فكانت مصادره كثيرة تتم عن علم واسع.

ومن هذه المصادر: الكتاب، والهاشميات، وأدب الكاتب، ومجالس ثعلب، والجمهرة، وتهذيب اللغة، والفسر لابن جنى، والصحاح، والمحكم، وأساس البلاغة، والكشاف، والمفصل، والنهاية لابن الأثير، والتكملة والذيل والصلة، والتسهيل، وشرح الكافية، وارتشاف الضرب، والجنى الداني، وشرح بانت سعاد، ومغنى اللبيب، وتهذيب الخواص لابن منظور.

أما شواهد الكتاب فقد استشهد بالقرآن الكريم وبلغ عدد الآيات أو أبعاضها ثلاثين ومائة آية تقريباً^(٢)، واستشهد بالقراءات السبع، والقراءات الشاذة وبلغ ما استشهد به ست وعشرين آية، وهو في هذا يسند القراءة أحياناً وأحياناً أخرى لا يسندها^(٣).

واستشهد بالحديث الشريف وربما ذكر أكثر من رواية للحديث، واستشهد أيضاً بالآثار، ومن ينظر في كتب التصحيح اللغوي التي ألفها ابن الحنبلي يجده قد استشهد على وجه التقريب بثلاثة وثلاثين حديثاً في مواضع متفرقة، وهي نسبة ليست بالقليلة، إن استشهاده بالحديث لديه كانت لتوضيح مسائل نحوية وصرفية ولغوية^(٤).

واستشهد أيضاً بالأشعار والأرجاز من شعراء الطبقات الأربع على سبيل الاحتجاج بهم،

(١) عقد الخلاص بتصرف ص ١٦٩، ١٧٠.

(٢) انظر: ابن الحنبلي وجهوده اللغوية ص ١٠٠.

(٣) السابق ص ١٠٥ : ١٠٨.

(٤) السابق ص ١٠٩، ١١٠.

واستشهد بشعر غيرهم من المولدين والمحدثين، واستشهد بشعره نفسه في بعض المواضع^(١)، وربما كان هذا على سبيل الاستئناس أو التقوية، وقد ذكر صاحب ابن الحنبلي وجهوده اللغوية أن المؤلف ربما كان يذكر روايات لأبيات ربما تخالف ما في الدواوين^(٢).

وفي النثر استشهد ابن الحنبلي بأمثال عدة زادت على عشرة أمثال^(٣).

واستشهد بكلام علماء العربية، وإن لم يكونوا من عصور الاحتجاج، فقد استشهد على جواز تعريف (غير) الموعلة في التكرير بوروده في كلام الشاطبي، قال: « قد استعمل (الغير) بالآلف واللام الإمام الشاطبي في أول أبيات فرش الحروف من حرز الأمانى، وأبيات أخر بعده، وكان متقناً لأصول العربية »^(٤).

وربما ذكر هذا منه على سبيل التقوية لرأيه في جواز دخول أل على (غير) فهو في الحقيقة يستدل برأي الشاطبي في الجواز لا بكلامه، ومع أن الشاطبي لم ينص عليه لكن استعماله له، وهو متقن لأصول العربية دليل على جوازه عنده، ويبقى الأمر احتمالياً.

كما أنه اعتمد على اللهجات العربية اعتماداً واضحاً، واستشهد بها في سبعة وعشرين موضعاً من كتبه على وجه التقريب ملقباً إياها تارة وأخرى لا^(٥).
أثر (عقد الخلاص) في كتب التصحيح اللغوي من بعده.

تظهر القيمة الأساسية لعقد الخلاص في كونه أحد المصادر أو أهم المصادر التي اعتمد عليها الخفاجي في شرحه لدرة الغواص، فقد نقل فيه وأكثر من النقل، سواء أنقل كلام ابن الحنبلي نفسه في رده على الحريري، أم في نقله كلام ابن ابري وابن ظفر في تخطئتهما الحريري، يقول محقق شرح الدرة " وقد أفاد الخفاجي من كتاب ابن الحنبلي، ونقل منه، إلا أنه عند النقل لم يصرح باسم صاحبه فقط، بل يقول: "ومن الناس من يقول"، وأما قول من قال "...، وقد نقل الخفاجي أيضاً من هذا الكتاب دون إشارة منه إلى هذا النقل "^(٦).

التوسع في التصحيح اللغوي - ابن الحنبلي رائداً

من أبرز ما يخلص إليه الباحث في كتب التصحيح اللغوي أنها جميعاً تتوسع في مصادر الحجاج السماعية، وهذا الأمر يشمل من نسبوا إلى التساهل كالبطليوسي، وابن هشام اللخمي، وابن الحنبلي، كما يشمل من نسبوا إلى التشدد كثعلب والكسائي وابن السكيت، وابن قتيبة، والحريري. فهؤلاء جميعاً يحتجون بما منعه بعض النحويين البصريين والكوفيين، أو ما اختلفوا في صحة

(١) السابق ص ١١٢ : ١١٧ .

(٢) السابق ص ٩٦ : ١٠٥ .

(٣) السابق ص ١١٧ .

(٤) عقد الخلاص ص ٢٠٤ .

(٥) ابن الحنبلي وجهوده اللغوية ص ١١٨ : ١٢٠ .

(٦) من كلام محقق شرح درة الغواص للخفاجي، الدكتور محمد رياض السيد كريم، الجزء الأول، ورقة ٣٨ .

الاحتجاج به، كالحديث الشريف، والقراءات غير السبعية، وغيرها إذا خالفت المشهور من القواعد. ويكاد الفريقان يتفقان على أصول الحجاج السماعية الزمانية والمكانية، وأحسب أنه لا فرق بينهم يذكر فيما يستشهد به من ناحية السماع، ولكن الخلاف بين الفريقين يأتي من جهة القياس، والتوسع فيه وقبول التطور اللغوي، أو النظر إلى ما يجد في العربية، فمنهم من يعده لحناً، ومنهم من يقبله على أنه تطور، طالما حمل الصفة والصيغة الأصلية لما نطق به العرب، وإن زاد أو نقص قليلاً عنه، نتيجة لقياس صحيح أو خاطئ.

فمن نسب إلى التيسير في مسألة التصحيح يغلب عليه التوسع في القياس على ما سمع، وإن كان قليلاً أو نادراً، ولا يفاضل بين لغات العرب إلا من ناحية الفصح والأفصح، لا من ناحية الصواب والخطأ.

أما من نسب إلى التشدد فيعنيهم في المقام الأول أن يدور الكلام بين مستويين هما الأفصح والفصح، ويتشددون في معيار هذين المستويين، ولا يلتفتون إلى ما سواهما، بمعيارهم الذي جعلوه صارماً، فالمسألة هي في الحقيقة خلاف في كنه الفصح والأفصح، والمعيار الضابط لهما، وهذا لا علاقة له بالصحة والخطأ إلا من ناحية عد ما خلاف الفصح والأفصح لحناً من قبل المتشددين، والاعتداد به من ناحية الميسرين، لتوسعهم في معيار الفصح والأفصح، واعتدادهم بالقياس على ما سمع وإفساح المقال والمقام له.

وهذا غالباً، وإلا فإن هناك بعض المسائل التي لا تحتل خلافاً نحوياً، وهي ما يمكن أن يسمى باللحن الجلي، وهذه لا علاقة لها بما الحديث فيه.

والأمر في اللغة نفسه في المعاني، ففريق من النقاد يرى أن الوجه ما هو نطقت به العرب فليس "لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، أو يبكى عند مشيد البنيان؛ لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل ويصنفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجواري، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي. أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيخ والحنوة والعرارة، وليس له أن يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا"^(١)، فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعراً " وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعرى ليس هو من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب"^(٢).

هنا إذن منهج سار في القواعد والمعاني.

أما الميسرون من نقدة الأدب فيرون أنه: «ليس لقدم العهد بفضل القائل، ولا لحدثان عهد يهتضم

المصيب، ولكن يعطى كل ما يستحق»^(١)، «ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره، وكل شرف خارجياً في أوله»^(٢)، «ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام ثاقبة، ولكلت ألسن لسنة، ولما توشى أحد الخطابة، ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة، ولمجت الأسماع كل مردد مكرر، وللفظت مقلوب كل مرجع ممضغ، وحتام لا يسأم»^(٣).

ومن هنا تعتمد كتب الرد أو التصحيح عند الميسرين - خاصة عند المتأخرين - على الخلاف النحوي، والتوسع في اللهجات، واعتماد الفصح والأفصح، وما سواهما، والتوسع في مصادر الحجاج السماعية، واعتماد القليل والنادر والشاذ، والتوسع في القياس عليهما، ومراعاة الاستعمال، يقول السيوطي: «وإنما الفصح ما أفصح عن المعنى واستقام لفظه على القياس لا ما كثر استعماله، ثم قال ابن درستويه: وليس كل ما ترك الفصحاء استعماله خطأ، فقد يتركون استعمال الفصح لاستغنائهم بفصح آخر أو لعلّة غير ذلك»^(٤).

وقول ابن درستويه: «لاستغنائهم بفصح آخر أو لعلّة غير ذلك» يفتح الباب واسعاً أمام احتمالات أخرى تساند المشتغلين بقضية تصحيح التصحيح.

وليس يغيب - في ظني - عن الحريري وأضرابه من المتشددین أن الذي منعه أو حكموا عليه باللحن هو جائز على وجه من الوجوه، لكنه عندهم دون الفصح والأفصح، مع التسليم بأنه قد يكون صحيحاً، لكنه في حق الخاصة من العلماء والأدباء والمتأدبين يكون لحناً، ولا يكون كذلك في حق من عداهم، وهم يجرون في هذا على عادة البلاغيين أو يجرى البلاغيون على عادتهم حين يشترطون لفصاحة الكلمة والكلام الخلو من الشذوذ، والعدول عن الأصل اللغوي.

ولهذا لا يكو غريباً أن نرى بعض البلاغيين يشترطون على الشاعر: ألا يضع في نفسه أن الشعر موضع اضطراب، وأنه يسلك سبيل من كان قبله، ويحتج بالأبيات التي عيبت على قائلها؛ فليس يقتدى بالمسيء، وإنما الاقتداء بالمحسن^(٥).

فالمسألة عندهم لا تخضع للصحة والخطأ اللغوي بقدر ما تخضع للفصاحة من منظورهم.

وقد سبق أن الحريري يحكم بلحن بعض الألفاظ أو الأساليب مع علمه بورود مثل هذا في قراءة قرآنية، أو شعر يحتج به، لكنه يؤوله أو يرده على حسب مقاييسه في الفصاحة، لا على حسب الصحة والخطأ.

(١) الكامل للمبرد ٢٨/١.

(٢) الشعر والشعراء ص ١٠، ١١.

(٣) نتيمة الدهر ٤٦٤/٣.

(٤) المزهر ٢٠٨/١.

(٥) انظر: عيار الشعر ابن طباطبغا ص ١٦، ١٥، الصناعتين ص ١٥٠.

وعلى هذا فإن أصل الخلاف بين كتب التصحيح وكتب الرد أو تصحيح التصحيح يكون مسعياً، ويدخل في إطار الخلاف النحوي أكثر من دخوله دائرة اللحن والتصويب.

وهذا هو ابن الحنبلي والحريري في مسألة بناء أفعال التفضيل من خير وشر، وقد اختلف مناحهما في القبول والرد، يقول ابن الحنبلي: «ومن ذلك قولهم: (فلان أشر من فلان) إذ هو من قبيل الشاذ، لا من قبيل ما لحنوا فيه، قال صاحب عمدة الحفاظ^(١): والمشهور في مادة الخير والشر إذا بني منهما أفعال تفضيل ألا تثبت همزتهما فيقال: (زيد خير من عمرو) و(شر من بكر)، وشذ ثبوتها فيهما، كقوله:

بَلَّأَ خَيْرُ النَّاسِ وَابْنُ الْأَخِيرِ^(٢)، وقرئ شاذاً: (سيعلمون غداً من الكذاب الأشر)^(٣)، هذا كلامه^(٤). وبه يرد على الحريري إذ قال: فأما قراءة أبي قلابة: سيعلمون غداً من الكذاب الأشر، فقد لحن فيها، ولم يطابقه أحد عليها، وذلك بعد أن قطع بأن الصواب أن يقال: هو شر من فلان، بغير ألف، كما قال تعالى (ثُمَّ لَآتِيَنَا هَٰؤُلَاءِ مَطَافُ هَٰؤُلَاءِ)^(٥)»^(٦).

ويمكن بهذا فهم كلام ابن الحنبلي في كتبه ورسائله المختلفة في التصويب اللغوي، فهو يناقش المسائل من خلال كونها محلاً للخلاف النحوي، لا من منظور الفصيح والأفصح وما سواهما، ولذلك فهو يتوسع في التصحيح، ومثله في هذا كتب الرد أو تصحيح التصحيح، فقد ساد في القرن العاشر للهجرة اتجاه جديد هو في الحقيقة ثمرة للتوسع في قبول اللهجات، وعدم التدقيق في المسموع العربي، والاتجاه الجديد يمثل رداً للعامي إلى الفصيح، فابن الحنبلي صاحب بحر العوام يحاول رفع الإصر عن ذلك الجيل من العرب الذين أصابوا في كثير مما يعتقد الجاهل أو الناسي أنه من أغلاط عوام الناس^(٧).

ومن الطبيعي بالنظر إلى هذا التوجيه أن يكون المستوى الصوابي لدى ابن الحنبلي ميالاً إلى التوسع في قبول اللهجات، مهما كانت درجة فصاحتها وهو يعد صحيحاً ما كان لغة تستند إلى بيت مجهول القائل، أو مثل لسنا ندرى مصدره وزمانه، كذلك نراه يسوغ أقوالاً متعددة، ويصوبها لأنها جرت على عادة الناس.

ومن الملاحظ أن ابن الحنبلي وظف كثيراً من مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، وغيرهم

(١) انظر عمدة الحفاظ ٢٦١/٢.

(٢) رجز لم يعلم قائله، من شواهد التصريح، ١٠١/٢، والأشئوي، ٤٣/٣.

(٣) القمر: ٢٦.

(٤) أي كلام السمين الحلبي في عمدة الحفاظ.

(٥) الأنفال: ٢٢.

(٦) بحر العوام ص ١٩١.

(٧) السابق ص ٩٥.

من العلماء لصالح تصويبيه، ومعيار التصويب عنده^(١): أن يجد قولاً للغوي أو شاهداً لشاعر مهما كانت درجة الأقوال والشواهد من الاحتجاج^(٢).

والقياس عند ابن الحنبلي يجعله من المتساهلين، فهو يقيس على ما سمع ولو كان قليلاً، ومثال هذا القياس على (صنعاني) في النسب إلى صنعاء، والقياس: (صنعائي) لكن العرب زادت الألف والنون عليها، فابن الحنبلي من أجل القياس يصحح قول من قال (فاكهاني) في النسب إلى (فاكهة)، بزيادة الألف والنون، يقول ابن الحنبلي: «وهو غير خطأ، إذ ليس كل ما خالف القياس غير صحيح، فقد يكون المخالف هو الصحيح، إذا ورد السماع به، بدليل قولهم: (صنعاني) في النسبة إلى (صنعاء) و(حلواني) في النسبة إلى الحلواء، وهذا من قبيل المنسوب إلى الشاذ»^(٣).

وهو في عقد الخلاص يضيف دليل صحة من استعمال العلماء لها فيقول: «وكثيراً ما يذكر في كتب الأصول: القاضي أبو بكر الباقلاني، فيذكر بصيغة النسبة بالنون ليس إلا، والظاهر أنه لو كان خطأ لنزه العلماء ألسنتهم عنه»^(٤).

ومثال آخر في جواز دخول (أل) على (غير) فبينما منعه الحريري لأنه لم يسمع^(٥)، أجازته ابن الحنبلي اعتماداً على القياس، يقول ابن الحنبلي: «وإذا كانت لا تعرف بالإضافة، فلم لا يجوز ألا تتعرف بأل، إذا دخلتها، كما لو أضيفت مع أنه قد تكون أل زائدة، فتكون أل غير معرفة، إما على سبيل اللزوم، كالتي تكون في علم قارنت وضعه كالسموأل، أو على سبيل العروض، كالتي تكون في علم منقول مما يقبل أل للمح الأصل المنقول منه كالحسن»^(٦).

وفي بحر العوام ينقل الكلام نفسه، ويزيده إيضاحاً، بأن المقصود ليس الاستدلال بكلام الشاطبي على الصحة، ولكنه يستدل برأيه على الصحة، فيقول: «من ذلك قولهم: (فعل الغير ذلك) بإدخال الألف واللام على (غير) دليل وقوع ذلك في عبارة الإمام الشاطبي في أول بيت ذكره في فرش حروف حرز الأماني وأبيات آخر بعده، وكان متقناً لأصول العربية على ما ذكره في ترجمته، فلا عبرة بزعم من زعم أن محققى النحويين يمنعون ذلك وهو الحريري»^(٧).

التطور اللغوي واللحن عند ابن الحنبلي

لعل تتبع تاريخ اللحن يعطي أبعاداً لغوية متعددة فحواها أن المقاومة التي قادها اللغويون

(١) السابق ص ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠، ١٩١، ٢٠٤، والأمثلة كثيرة ينقل فيها ابن الحنبلي عن ابن بري ليصحح ما عبط الحريري.

(٢) مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي ص ٦٦، وراجع: في العربية الفصحى واللحن ص ٧٤.

(٣) عقد الخلاص ص ٢١٨، وراجع: بحر العوام، ص ٢٧٦.

(٤) عقد الخلاص ص ٢١٨.

(٥) انظر درة الغواص ص ٥٥.

(٦) عقد الخلاص ص ٢٠٤، ٢٠٥، وانظر: بحر العوام ص ٢٧٥.

(٧) بحر العوام ص ٢٧٥.

حاملين لواءها بوجه اللحن لم تكن متكافئة ؛ إذا اصطدمت بطبيعة اللغة المتحركة مع حركية الزمن والحياة رافضة الانصياع الى قوانين ولا بد ان تغلت من قيودهم التي حاولت أن تقودها الى سبيل لا يتعامل معها على أنها ظاهرة اجتماعية والسبب في هذا الرفض برأي الدكتور نعمة رحيم العزاوي أنهم " لم يفرقوا بين الخطأ والتطور ، ورأوا ان تقف العربية عند الحدود التي رسمها لها عرب الجاهلية وعرب القرنين الأول والثاني " (١) . بيد أن هذه العملية أعطت صورة عن حال اللغة آنذاك يمكن اعتمادها في بناء معجم تاريخي يقوم على أساس عدّ اللحن تطوراً يمثل مراحل زمنية معينة (٢) .

ومن خلال التقريب بين مفهومي اللحن والتطور يمكن التقرير أنه " لم يكن اللحن في تاريخ التنظير اللغوي العربي إلا مراوحة الحدث اللساني في صلب الزمن بصرف النظر عن الشحن المعياري الذي فرض ان تسمى الظاهرة بالأحكام الحافة بها لا بمنظومتها الذاتية وهكذا سمي التغير لحناً بعد أشتت اللفظة دلاليّاً بالهجين كما سميت ظاهرة التحول فساداً " (٣) إن قضية اللحن كشف عن عدم قدرة القواعد اللغوية وعجزها عن السيطرة على السنة الناطقين فهي " تعود في جوهرها الى الإقرار بشذوذ الموقف المعياري من الظواهر الطبيعية المواكبة للغة . فهو في ذاته (تضهير) بنشاز التسلط التحكمي على حيوية الكائن الحي " (٤) فالاختلاف بين اللحن والتطور ليس في جوهر المادة اللغوية التي يطلق عليها أحد المصطلحين ، بل نابع من تباين التأسيس المعرفي الذي استند إليه المنهج اللغوي عند القدماء والمحدثين . فما كان انحرافاً عن القاعدة على وفق المنهج اللغوي عند القدماء وهو أيضاً لحنٌ وخطأٌ أصاب اللغة تجب مقاومته فهو " نموٌ وتطورٌ للغة من وجهة نظر علم اللغة الحديث إذ لا يحصل هذا اللحن والخطأ بطريقة عشوائية ، بل إنه يسير وفق قوانين التطور اللغوي " (٥) وعلى الرغم " من حسن نيتهم في محاولتهم الحفاظ على اللغة الفصحى التي تقترب من لغة القرآن الكريم ... فإننا نرى أنهم أغفلوا ناحية مهمة من نواحي الدرس اللغوي ، وتلك هي نواحي التطور اللغوي في ظواهر الأصوات والبنية والأسلوب " (٦) ، ويؤكد الدكتور رمضان عبد التواب علاقة التمازج بين اللحن والتطور حتى مع العوائق التي تعترض بحثهما قائلًا : " نعم .. ليست لدينا مؤلفات كاملة عن التطور اللغوي في لغة الأجيال المتعاقبة ... ولم يصل إلينا إلا بعض سمات التطور في تلك الرسائل ... ولم يقصدوا مؤلفو هذه الكتب الى إحصاء كامل لظواهر التطور اللغوي في عصورهم وبلدانهم ، وإنما كان همهم أن يجمعوا طائفة من الالفاظ التي تطورت

(١) النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري : ٣٩٦ .

انظر : تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ، تصدير الدكتور رمضان عبد التواب : ٥٤ .

(٣) التفكير اللساني في الحضارة العربية : ٩٤ .

(٤) نفسه .

(٥) لحن العامة والتطور اللغوي : ٣٣ والنقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري : ٣٩٤ — ٣٩٦ .

(٦) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ، تصدير الدكتور رمضان عبد التواب : ٤ .

على ألسنة الناس ، واستخدمها الكتاب والخطباء في صورتها الجديدة ، ليبرهنوا على خطئها بالرجوع الى المادة التي جمعها اللغويون الأوائل... ومع ذلك كان رأيي وما يزال "انه إذا جمع كل تراث لحن العامة ، وحقق تحقيقاً علمياً أميناً ، فإننا نستطيع أن نمسك الى حد ما بخيط هذا التطور... ولنلمس اتجاهاته على مر الأزمنة واختلاف الأمكنة التي تتكلم العربية" (١) .

وفكرة التطور هذه المحسوب ، المقدر بقوانين التطور الطبيعية المتصلة باللغة ، لا الخارجة عنها كانت في أذهان المشتغلين بقضية تصحيح التصحيح في كتب الرد .

والمؤلفون في التصحيح وتصحيح التصحيح يختلف حالهم في قبول التطور اللغوي ، أما من قبل منهم ما جاء من التطور جارياً على سنة من سنن العرب أو قياساً على كلامهم ، فلم يكن يصدر عن منهج واضح أو خطة عامة ، بل اختلطت عنده الأمور بين الاعتداد بالسماع وتأويل شواهد ، وفتح باب المجاز والتطور ، وعلى هذا فإن ما ورد لدى بعض المصنفين من هذا النحو من قبول التطور ليس مقيساً على كلام العرب لا يمثل تياراً عاماً ، بل قد لا يتجاوز الموضع أو الاثنين ، ولا سيما لدى من عدناهم في التيار المتشدد ، كابن فتيبة والزبيدي وثلث وغيرهم ، أما من عدناهم من التيار المتساهل الذي قبل بعض التطور وإن لم يكن له من السماع دليل ، فقد توسعوا في ذلك قليلاً ، لكنهم بقوا في معظم مناقشتهم ينافحون عن كلام العامة ، مستخدمين الأدلة السماعية ، أو تأويلات لها مع أن تخريجات لها على المجاز ونحوه وارد" (٢) .

وهذا الحدث وتلك الحالة كانت قديمة ، ينقل لنا السيوطي نصاً كاشفاً يوضح اختلاف المقياس الصوابي عند القدماء مقارناً بين المقياس الصوابي عند الأصمعي وعند أبي زيد إذ " كان الأصمعي يقول أفصح اللغات ويلغي ما سواها ، وأبو زيد يجعل الشاذ والفصيح واحداً ، فيجيز كل شيء قيل " (٣) معتمداً في ذلك على ما سمع عن العرب أو القراء

وقد ذكر الدكتور عبد العزيز مطر أمثلة من الخلاف في المستوى الصوابي بين الزبيدي وابن هشام اللخمي فما قد يرفضه الأول قد يقبله الآخر وكذلك الحال مع ابن فتيبة وابن السيد البطليوسي . (٤) إذ نظروا الى اللحن من زاوية الخطأ وعدوه انحرافاً عن الطريقة الصحيحة التي ينبغي أن يلتزمها متحدث العربية آخذين بالمستوى الذي تفرضه القواعد النحوية واللغوية الصارمة من دون الأخذ بعين الاعتبار بكثرة الاستعمال وقوته وما يترتب على ذلك من تطور وتغير فلغة نظامها الذي يفرض استعماله بين المتكلمين بها وعمل الباحث اللغوي ملاحقة التطور لا مصادرتة وملاحظته لا تجميده (٥)

(١) نفسه : ٥٠ .

(٢) مصنفات اللحن والتثقيف ص ٥٠٥ .

(٣) المزهر ١ : ٢٣٣-٢٣٤ .

(٤) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : ٤٧ - ٤٨ .

(٥) اللغة بين المعيارية والوصفية : ١٦٧ - ١٦٨ . ٢٤٥

ويبدو أن إهمال النظرة إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية جعل المقياس الصوابي ليس " موضع اتفاق تام ، لا عند جامعي اللغة ، ولا عند النحويين واللغويين ، ولا عند أصحاب كتب لحن العامة " ^(١) لأن ارتباط اللغة بالمجتمع يفرض على مقياس الصواب قدراً من المرونة ، يساير مقتضيات التطور " فما كان صواباً في الماضي يصبح خطأ في الوقت الحاضر ، ويصبح خطأ اليوم صواب الغد ، إذا رأى المجتمع اللغوي أن يتبناه في الاستعمال " ^(٢) وقد أدرك ابن رشيق القيرواني هذا إذ يقول : " قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ، ويستحسن في بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ونجد الشعراء الحذائق تقابل كل زمان بما استجد فيه وكثر استعماله عند أهله " ^(٣) حتى قال احد الباحثين مقارناً بين الأدباء والنحاة : " وقد كان مؤرخو الأدب أسرع إلى الاعتراف بعصور اللغة من النحاة " ^(٤)

موقف ابن الحنبلي من التطور في عملية تصحيح التصحيح

قبل ابن الحنبلي فكرة التطور الخاضعة لكثرة الاستعمال، وهذا هو يقبل فينقل عن ابن برى صحة قولهم (مالح)، وإن كان دون الفصح والأفصح الذي هو ملح، ويبرره في كلامه نطق به الإمام الشافعي بأنه: «جرى في ذلك على عادة الناس في استعمال هذه اللفظة كما استعمالها غيره من العرب، وإن كان غيرها أفصح، ثم استشهد بأبيات كثيرة على قولهم: ماء ملح، منها قول مجنون ليلى:

وَلَوْ تَفَلَّتْ فِي الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ مَالِحٌ لَأَصْبَحَ مَاءُ الْبَحْرِ مِنْ رِيْقِهَا عَذْباً^(٥).

إلى أن قال: فهذه شواهد كثيرة على قولهم (ماء ملح)، وإن كان الأفصح: ماء ملح، إلا أنه إن كان ملح أفصح فلا يجب بذلك أن يكون ما سواه خطأ» ^(٦).

ويبرز ابن الحنبلي دور التطور في موت صيغة وإحياء أخرى محلها، ويقبله ويصحح به قول من قال (عطشانة) مع أن الكثير فيه (عطشى) يقول: " ومن ذلك قولهم: (عطشانة) في عطشى، مع أن وجود (فعلى) مستلزم لانتفاء: (فعلاته) على ما تقرر في محله من كتب النحو ^(٧).

والعذر لهم أنهم لا يقولون: (عطشى) في مؤنث: (عطشان) (ليمتنعوا من أن يقولوا: (عطشانة)، ومن الجائز أن تقع (عطشى) في لغة فلا يقع (عطشانة)، ولا يقع في لغة أخرى فيقع (عطشانة)،

(١) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة : ٤٩ .

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية : ٦٨ .

(٣) العمدة : ١ : ٩٣ .

(٤) اللغة بين المعيارية والوصفية : ١٦٨ .

(٥) البيت من الطويل ، لمجنون ليلى ، وهو في ديوانه ، ص ٦٦ ، تحقيق أحمد عبد الستار فراخ .

(٦) بحر العوام ص ٢٣٥ .

(٧) انظر في هذا لحن العوام للزبيدي ص ١٣٩ ، تحقيق مطر ، والمدخل إلى تقويم اللسان لابن هشام اللخمي ص ٦٢ ،

فيكون (عطشان) من باب (فعلان) الذي يقال في مؤنثه (فعلى) كـ (ندمان) من الندم في كفه، ومن باب (فعلان) الذي يقال في مؤنثه (فعلانة)، كـ (ندمان) من المنادمة في أخرى، مع أنه قد ورد هذا اللفظ في حديث بركة التي شربت بول النبي p، وساقه القاضي عياض في الشفا^(١)، وذلك حين قالت: قمت وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أعلم، وحكى صاحب العين: امرأة عطشانة^(٢)، ذكره صاحب التقریب، ومثله سكرانة في لغة بني أسد وهو المستعمل الآن^(٣).

وقول ابن الحنبلي في هذا النص: (وهو المستعمل الآن) يبرز دور التطور المبني على قياس صحيح أو خاطئ، مع الخضوع لسطوة الاستعمال، والاعتراف بشرعيته، طالما كان له سند من كلام العرب، وإن كان قليلاً.

أدوات التصحيح اللغوي عند ابن الحنبلي

يعتمد ابن الحنبلي على ما فيه خلاف نحوي أو صرفي لتصحيح ما منعه غيره، فيكفيه أن يرى قولاً لمخالف حتى يجيره، فبينما يرى الجوهري في الصحاح أن (أيادي) في جمع (يد) مقصورة على الشعر، يرى ابن الحنبلي جوازه في النثر اعتماداً على ما أورده صاحب المغرب^(٤)، من الجواز في النثر، يقول ابن الحنبلي: «وقول الجوهري: وقد جمعت (الأيدي) في الشعر على (أياد) وهو جمع الجمع^(٥)، لا ينافي أن تجمع عليه في السعة عند غيره، كصاحب المغرب حيث قال: (اليد) من المنكب إلى أطراف الأصابع، والجمع: (أيد)، و(الأيدي) جمع الجمع، إلا أنها غلبت على جمع (يد) النعمة، هذا كلامه، وهو يقتضى استعمال الأيدي في الجوارح المخصوصة نثراً، ولكن على غير وجه الغلبة كما استعملوا النجم في غير الثريا من الكواكب مع استعمال فيها غالباً»^(٦).

وأمثله هذا كثيرة، وهى جل ما اعتمد عليه ابن الحنبلي في تصحيح ما منعه الحريري وغيره، ومن أمثلة هذا: تصحيحه لقول بعضهم: «(منتن) بكسر الميم تبعاً للتاء، مع أن اسم الفاعل من غير الثلاثي المجرد مبدوء بالميم المضمومة، ففي تسهيل ابن مالك^(٧)، أنها ربما كسرت في (مفعِل)، أو ضمت عينه، وفي الصحاح^(٨): التنتن: الرجة الكريهة، وقد نتن الشيء، وأنتن، بمعنى: منتن، ومينت، كسرت الميم اتباعاً لكسرة التاء»^(٩).

(١) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص ٦٥.

(٢) انظر: العين، تحت الجذر (ع ش ط).

(٣) بحر العوام ص ٩٨، ٩٩.

(٤) انظر: المغرب للمطرزى ٣٩٥/٢.

(٥) انظر الصحاح، مادة (ي د ي).

(٦) بحر العوام ص ١٠٨.

(٧) انظر: التسهيل ص ١٣٦.

(٨) الصحاح مادة (ن ت ن).

(٩) بحر العوام ص ١١٠.

ومن اعتماده على ما فيه خلاف نحوي قوله: «ومن ذلك قولهم: (سعيد) و(يعيد) بكسر أولهما، ففي شرح الشافية الشيخ الرضي^(١) أن كسر فاء (فعل) جائز في كل ما كانت عينه حرف حلق»^(٢).

ومنه تصحيحه لحذف نون الرفع في الأمثلة الخمسة دون موجب أو مجوز له من ناصب أو جازم اعتماداً على رأى ابن مالك فيه، يقول ابن الحنبلي: ومن ذلك قولهم: (يفعلوا) و(يقوموا) و(يقعدوا) و(تفعل) و(تقومي) و(تقدي) ونحو ذلك مما حذفوا منه نون الرفع دون جازم ولا ناصب، وهو عند ابن مالك جائز في الكلام الفصيح من غير ضرورة^(٣)، ومن ذلك في النشر قراءة أبي عمرو في رواية عنه: (نَ عَ كَ وَ) بتثديد الظاء، والأصل: (تَنظَاهِرَانِ)، فأدغمت التاء في الظاء، وحذفت نون الرفع التي هي نون التثنية، ورفع (ساحران) بتقدير: أنتما ساحران، وقوله p: لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، بحذف نون جمع المذكر من (تؤمنوا) و(تدخلوا) المنفيين بـ (لا)، فيمن روى هذا الحديث هكذا، وفي النظم ما أنشدناه قبيل هذا، وقول الآخر:

أَبَيْتُ أَسْرَى وَتَبَيَّيْتُ تَدْلِكِي وَجْهَكَ بِالْعَنْبَرِ وَالْمَسِكَ الذَّكِيَّ^(٤).

بحذف النون الواحدة المخاطبة مرتين^(٥).

وغني عن الذكر أن الاعتماد على ما فيه خلاف نحوي يكون دائماً أو غالباً مصحوباً بأدلة من السماع، كما في الأمثلة السابقة، لكنه في أكثر الأحوال يكون فيما يقل أو يندر من الكلام، ومن هنا يأتي الخلاف في اعتماد القليل النادر، والشاذ حجة للتصحيح.

ومثل هذا ما يعده بعضهم ضرورة في الشعر، ولا يجيز استعماله في الكلام.

ومثله أيضاً الاعتداد باللهجات والقياس عليها، فابن الحنبلي والمشتغلون بتصحيح التصحيح يعتمدون على ما فيه الخلاف اللهجي لتقوية رأيهم، ومن هذا حذف الفتحة من ياء المنصوب، فقد أجازاه ابن الحنبلي في سعة الكلام لما ورد عن بعضهم أنه لغة، لا ضرورة، وعليه يخرج قول الناس: (الآن قبلنا أياديكم)^(٦).

ومنه أيضاً حذف العلامة الإعلامية، والوقوف بالتسكين في آخر الكلام، ومن هذا: "قولهم (أكلت كباب) و(شربت شراب) بإسكان الآخر حالة الوقف في ذلك وما شاكله، مما هو منصرف منصوب

^(١) انظر شرح الشافية للرضي ٤٠/١، والشوارد ص ٤٩، ٥٠.

^(٢) بحر العوام ص ١١٠.

^(٣) انظر التسهيل ص ١٠، وفيه أن الحذف نادر، في النظم والنثر.

^(٤) القصص: ٤٨. وهي قراءة الحسن وأبي حنيفة، انظر: البحر المحيط، ٢٠٩/٣.

^(٥) الرجز ورد غير منسوب في: الخصائص، ٣٨٨/١، والمختص، ٢١/٢، والخزانة ٨/٣٣٩.

^(٦) بحر العوام ص ١٣٣، ١٣٤.

^(٧) انظر: السابق ص ١٠٦، ١٠٧.

على لغة قبيلتنا ربيعة، حيث لا يقفون عليه بالآلف كما هو لغة غيرهم، ولكن بالسكون كالمرفوع بلا فرق، فيقولون: (قام زيد)، و (رأيت زيد)، و (مررت بزيد)، بإسكان الدال في جميع الأحوال، وعلى هذه اللغة جاء قوله:

أَلَا حَبْدًا غَنَمٌ وَحُسْنُ حَدِيثِهَا لَقَدْ تَرَكْتُ قَلْبِي بِهَا هَانِمًا ذَيْفًا^(١)

وعليها أيضاً بنيت قولي:

وَلَمَّا كَانَ لِي نَسَبٌ شَهِيرٌ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ الْأَصَانِلِ

سئلت: إلى ربيعة أنت تُعزى؟ فقلت: اكفف فلست أجيب سائل^(٢).

وهذا المنهج لا غبار عليه غالباً، لكنه لا يدخل أصلاً في موضوع الحريري، لأنه لم يقصد - غالباً في أكثر مواد كتابه - وضع كتاب للخلاف النحوي، أو اللهجي، وإنما أراد وضعه للمطرد من الكلام الذي جرى على نسق الفصيح، والأفصح وهدما، وابن الحنبلي وغيره يخاطبونه من غير الجهة التي أرادها.

وسيطل النزاع قائماً إلى أن يفصل في هذه المسألة، هل المراد هو الفصيح والأفصح، أو الصواب والخطأ.

^(١) البيت من الطويل، وورد غير منسوب في: الجمع ٣/ ٣٨٦، والضرائر، للألوسي، ص ٦٣.

^(٢) بحر العوام، ص ١٥٥، ١٥٦. والبيتان من الوافر.

الخاتمة

عند الصباح يحمد القوم السرى ، وهانحن ذا قدشارفنا على نهاية البحث مؤقتاً في عملية جدلية تكاد ألا تنتهي ، وأظنها لن يفرغ منها مداد قلم .

وقد انتهى هذا البحث - على ما قدر له أن يكون - إلى نتائج تحتاج همة الباحثين ، ونظر المتفكرين ، وأظنها قد تفك شيئاً من عقد هذا الجدل .

١- فيما يتصل باللحن وعلاقته بالتطور اللغوي أدهشني أن كثيراً من المسائل التي وضعها المصنفون في التصحيح اللغوي ، ومن أشهرهم الحريري هي نفسها أو كثير منها هي التي صنفها المحدثون لضبط وتقويم اللسان ، فالذي ادعوا أنه لحن أو خطأ في اللغة اتسم بالثبات لمدة تزيد عن سبعة قرون . .

وهذا يعكس أموراً: الأول: أن التطور في اللغة يسير إلى نهاية محتومة، ولا يتعدها. الثاني: أن التطور غالباً يسير باتجاه القياس على الشاذ والقليل في عصور العربية الأولى. الثالث: أن هذا التطور له قوة الوجود ، و أن محاولات القضاء عليه ، بتصنيف الكتب والرسائل في التصحيح اللغوي كانت أضعف منه .

الرابع : اتسم التطور بالتصرف في الصيغ والأساليب على وجه قد تقبله العربية ، واتجه اتجاهاً آخر بترك استعمال بعض الأساليب كأسلوب التنازع والاشتغال ، وهما من أساليب الفكر اللغوي الدقيق الذي لا يناسب إلا طبيعة العربي القح صافي القريحة ، مشحوذ الذهن ، كما اتجه إلى ترك بعض الصيغ كصيغ التصغير ، خاصة في العربية المعاصرة ، واستبدل الصيغة التصغيرية التصريفية بأسلوب وصفي نحوي ، وهو أسلوب الوصف ، فبدلاً من أن يقول مثلاً : (رُجِيل) للدلالة على التحقير ، صار يقول :رجل حقير ، مع أن الأسلوب هكذا ينافي طبيعة الإيجاز الذي تميل إليه العربية المعاصرة ، إلا أن صعوبة قواعد التصغير ربما كانت هي السبب وراء هذا التحول .

الأمر الأخير ، دلالة هذا الثبات في التطور على أنه يأتي على وجه من العربية ، و إلا تجاوز هذا الثبات ، واستحالت معه الصيغ والأساليب .

٢- بدأ التصنيف في التنقية اللغوية كوفياً وظل هكذا ، حتى أتى البغداديون ممن غلبت عليهم النزعة البصرية، فشاركوا الكوفيين في هذا الفن .

وقد غلب على التصنيف الكوفي معيارية ليست معتادة عنهم ،وربما يفسر هذا الأمر أن هذه الكتب في الحقيقة ليست سوى كتب أو رسائل فيما يكون به الكاتب أو الشاعر فصيحاً ، وهذا أمر زائد على أن يكون صحيحاً ، وهم في سبيل ذلك يطلبون من الكاتب أن يلتزم المطرد الشائع ، خروجاً من الخلاف ، وهم إذا خطؤوه فهو من هذه الجهة فقط ، لا من جهة الصحة ، وإلا فإن

مذهب الكوفيين يسع القائلين جميعاً ، ويكاد على مذهبهم ألا يلحن أحد .
والكوفيون بصنيعهم هذا قد اقتربوا كثيراً من المذهب البصري المعياري ، وهذا المذهب قد يصح التمسك به في مجال الفصاحة ، لا في مجال الصحة ، ويؤكد هذه النظرة ما جاء في أدب الكتاب للصولي : " حدثنا أحمد بن يحيى ثعلب ، قال : كان ابن قادم مع إسحاق بن إبراهيم المصعبي فكتب كاتبه ميمون بن إبراهيم إلى المأمون كتاباً فيه : " (وهذا المال مالاً يجب على فلان) ، فخط المأمون على " مالاً " ووقع بخطه في حاشية الكتاب : أكتاتبنى بلحن يا إسحاق؟! فاشتد ذلك عليه .

قال : فحدثني ابن قادم ، قال : أتاني ميمون فقال : الله الله في احتل لي . فحضرت فسألني إسحاق عن الحرف فقلت : الوجه وهذا المال مالاً ، و(مالاً) يجوز على تأول ، لأخلص الكاتب . فقال إسحاق لكاتبه : قد عفوت عنك فدعني من : يجوز والزم صحيح الإعراب .

ومثله أيضاً ما جاء في ربيع البرار للزمخشري : " قيل لشریح : أضحى بالضبي ؟ قال : وما عليك لو قلت : أضحى بالضبي ؟ قال : إنها لغة بالكسر ، قال : وما عليك لو قلت أنها لغة ؟ قال : قد تغر الجواد بالتأنيث ، قال شريح : قد ذهب العتاب^(١) .

وواضح من القصتين أن أحد الفريقين يطلب الصحيح من الكلام ، ولو كان غير فصيح ، معتمداً على أنه يجوز على تأويل نحوي ، أو على تخريج لهجي ، لكن الفريق الآخر لا يلقي بالاً إلا للفصيح ، ولا يسأل عن الجواز والصحة ، وإنما ينشد الجمال والفصاحة .

وأكد أوقن أن هذا الفن في أكثره لم يكن مراداً به التصحيح اللغوي بقدر ما أريد به أن يكون رسالة هادية مرشدة للمجمع عليه ، البعيد عن المتنازع فيه ، فهي كتب أو رسائل تكتب للفصيح من الكلام ، وما أحرى الكلام — عند هؤلاء بصريين وكوفيين — أن يكون مجمعاً عليه .

وعلينا ألا ننسى أن ثعلب الكوفي قد سمى كتابه الموضوع لهذا الغرض — (الفصيح) وهذا له عندي دلالة ، لا تتجاوز ما قلته من قبل . ومثله ما فعله وما فعله ابن قتيبة حين سمى كتابه (أدب الكاتب) .

ومن هنا ينتفي النزاع بين المؤلفين في التصحيح ، وتصحيح التصحيح ؛ لأن الأخيرين قد اتوهم من كيث لم يقصدوا ، فهؤلاء أرادوا أن يؤلفوا في الفصيح ، وأولئك ردوا عليهم من ناحية الصحيح .

٣- يلاحظ أن حركة تصحيح التصحيح تكاد تكون كلها تصدر عن منهج واحد ، ينقل فيه خالف عن سالف ، وقد ظهر من شروح درة الغواص أنها كلها — أو أكثرها — تعتمد نقض ما جاء به الحريري ، متكنين في هذا على كلام ابن بري ، وابن الحنبلي ، ومعتمدين المعايير اللغوية نفسها في الرد على الحريري ، مما يجعل كتب التصحيح

اللغوي كلها كأنها كتاب واحد اشترك فيه مؤلفون كثير.

وقريب من هذا الصنيع ما فعله الحريري ، لكن من ناحية أخرى ، فإن الحريري لم يقدم لنا أصالة في الرأي ، ومحاولة جدية لتصحيح لغة الخواص في عصره ، كما أراد إفهامنا بهذا في مقدمة كتابه ، وكل ما قدمه أو جله نقله عن سبقه ، ونقل كلام النحويين فيه وحججهم — خاصة البصريين — وبهذا يمكن القول إن النقل والتقليد غلب على مصنف الحريري (درة الغواص) ، ولم يكن ذا أصالة أو جدة في ذكر أو هام الخواص عنده .

— والأمر عند ابن الحنبلي لا يختلف كثيراً عما كان عليه عند الحريري ، فلم يكن ابن الحنبلي ذا أصالة — غالباً — في رده على الحريري ، وإنما كان كثير النقل عن ابن بري في المقام الأول في رده على الحريري ، ثم يتتبع آراء النحاة في نقض كلام الحريري .
وكان الكتاب وشرحه أو شروحه في الخلاف النحوي أكثر منه في التصحيح اللغوي .

٤- للتطور اللغوي أثر كبير في تفسير بعض الظواهر اللغوية المختلف فيها ، خاصة مع امتداد الرقعة المكانيّة والزمانية بعد الإسلام ، والقوانين اللغوية التي قد تصلح في نطاق ضيق وزمن محدود من المؤكد أنها لا تصلح وحدها في نطاق أكبر ، وزمن أبعد ، وقد اعترف اللغويون القدماء بأن المخالطة لبيئات مختلفة تؤثر في المنطق ، لذا حددوا ست قائل للأخذ عنها فقط ، وأهملوا بقية القبائل ، وهذا اعتراف منهم بأن المخالطة لها تأثير قوي ، وعليهم إذا أرادوا لنا أن يكون منطقنا شبيهاً بمنطق هذه القبائل الست أن ينقلونا إليها زماناً ومكاناً ، ويمنعونا من الخلطة إلا بهم ، أو عليهم أن يستسلموا لقوانين التطور اللغوي ، ويلتمسوا وجه الصواب — ولو كان بعيداً — فهذا أجدى وأنفع للغة وللمتكلمين .

ومن يتابع إحصائياً حركة التصحيح ، وحركة تصحيح التصحيح يجد أن الأولى مهزومة ، ولا تكاد تجد لها أنصاراً .

- ١- ابن الجنبلي وجهوده اللغوية ، مع تحقيق كتابه عقد الخلاص في نقد كلام الخواص ، نهاد حسوبي صالح ، مؤسسة الرسالة ط١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ .
- ١- ابن السيد البطليوسي ، حياته - منهجه في النحو واللغة - شعره ، للدكتور صاحب أبو جناح ، مجلة المورد العراقية ، عدد ٢ .
- ٢- ابن جني النحوي ، د. فاضل السامرائي ، دار النذير ، بغداد ، ١٩٦٩ م .
- ٣- ابن جني عالم العربية ، د . حسام النعيمي ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ط١ ، ١٩٩٠ .
- ٤- أخبار النحويين البصريين، لأبي سعد السيرافي، تح: د. محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام بالقاهرة، ١٤٠٥هـ.
- ٥- أدب الكاتب ، لابن قتيبة ، تحقيق الدكتور محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة .
- ٦- الأشباه والنظائر في النحو - لجلال الدين السيوطي (٩١١هـ) ، تحقيق عبد العال سالم مكرم ، مؤسسة الرسالة .
- ٧- الأضداد ، لأبي الطيب اللغوي ، تح : أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٨٧ م .
- ٨- الأعلام - لخير الدين الزركلي . دار العلم للملايين (بيروت) ط٥ ١٩٨٩ م .
- ٩- إعلام النبلاء بتاريخ حلب \الشهباء ، محمد راغب الطباخ ، دار القلم العربي، سوريا ٢٥ ، ١٩٨٨ م.
- ١٠- الاقتراح في أصول النحو وجدله للسيوطي تح: د. محمود سليمان ياقوت ، دار المعرفة الجامعية ، ٢٠٠٦ م.
- ١١- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن السيد البَطْنُونِي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.
- ١٢- أمالي السهيلي في النحو والحديث والفقه ، تح: د. محمد إبراهيم البنا ، مطبعة السعادة بالقاهرة ، من دون .
- ١٣- إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، تح: أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الكتب المصرية ، ١٩٧٣م.
- ١٤- الأنس الجليل لمجير الدين ، تح: عدنان يونس عبد المجيد نباتة ، مكتبة دنديس ، عمان ، ١٩٩٩ م .
- ١٥- الإيضاح في شرح المفصل، لابن الحاجب، تح: وتقديم موسى العليلى، الجمهورية العراقية، وزارة الأوقاف الشؤون الدينية، ١٩٨٢م.
- ١٦- بحر العوام ، فيما أصاب فيه العوام ، لابن الحنبلي ، تح: د. شعبان صلاح ، دار غريب ، ٢٠٠٦ م .
- ١٧- بحر العوام مطبوع بتحقيق التنوخي ، عن مجلة مجمع اللغة العلمى بدمشق .
- ١٨- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ، تح: صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت ١٤١٢هـ.

- ١٩- البداية والنهاية لابن كثير القرشي - تح: علي شيري ، دار إحياء التراث العربي ط - ١ - ١٤٠٨ - ١٩٩٨
- ٢٠- البسيط في شرح جمل الزجاجة لابن أبي الربيع، تح: د. عياد بن عبيد الثبيتي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠٧ هـ .
- ٢١- بغية الوعاة، للسيوطي، تح: أبو الفضل إبراهيم . المكتبة العصرية ، صيدا ، لبنان .
- ٢٢- البيان والتبيين للجاحظ (٢٥٥ هـ) تح: عبد السلام هارون - ط : الهيئة العامة لقصور الثقافة ، مصر .
- ٢٣- تاج اللغة وصحاح العربية ، الجوهري تح: أحمد عبد الغفور عطار . دار العلم للملايين ، ط ٣ ١٩٨٤ م .
- ٢٤- تاريخ ابن خلدون ، أو كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- ٢٥- تاريخ الأدب العربي . كارل بروكلمان ، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٤ م
- ٢٦- تاريخ الفلسفة في الإسلام، للمستشرق دي بور، تح: أبو ريدة، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١ م.
- ٢٧- تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، لأبي شامة المقدسي ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٦ م .
- ٢٨- تسهيل الفوائد ، لابن مالك ، تح: محمد كامل بركات ، الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ م .
- ٢٩- تصحيح التصحيح د. إبراهيم السامرائي ، مجلة المجمع القاهري، العدد ٨٧ .
- ٣٠- تصحيح التصحيح وتحرير التحريف، تصحيح التصحيح ، وتح: زير التحريف ، صلاح الدين الصفدي ، تح: السيد الشرقاوي ، و مراجعة د رمضان عبد التواب ، مطبعة الخاتجي ، ط ١ ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧
- ٣١- تصحيح الفصح وشرحه، لابن درستويه، تح: د. البدوي المختون، المجلس الأعلى للشنون الإسلامية ، ١٩٩٨ م .
- ٣٢- التفكير اللساني في الحضارة العربية، د. عبد السلام المسدي، دار العربية للكتاب، طرابلس ١٩٨٦ م.
- ٣٣- التقريب لحد المنطق لابن حزم ، تح: د. إحسان عباس ، دار مكتبة الحياة ، ط ١ ، ١٩٠٠ م .
- ٣٤- تكملة ما تلحن فيه العامة للجواليقي ، تح: د. حاتم الضامن ، دار البشائر ، بغداد .
- ٣٥- تلقي كتب اللحن ، والتطور اللغوي ، مقال نشر بجريدة الرياض السعودية ، يوم الخميس جمادى الثانية ١٤٢٢ العدد ٢٢٠ السنة ٣٧ .
- ٣٦- التنبيهات علي أغاليط الرواة، لعللي بن حمزة المصري، نشر مع كتاب المنقوص والممدود للقراء، تح: عبد العزيز الميمني الراجكوتي، دار المعارف، القاهرة.
- ٣٧- التهذيب بمحكم الترتيب، لابن شهيد الأندلسي، تح: د. حاتم الضامن ، دار البشائر الإسلامية ، ط ١

- ٣٨- حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث (د. محمد ضاري حمادي) : ١٥، ١٦، دار الرشيد ١٩٨٠ م .
- ٣٩- الحركة اللغوية في الأندلس ، ألبير حبيب ، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير من الجامعة الأمريكية في بيروت ، ١٩٦٥ . .
- ٤٠- خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب، البغدادي، تح:عبد السلام هارون، الخانجي، ١٤٠٩هـ.
- ٤١- الخصائص، لابن جني، تح:محمد علي النجار، عالم الكتب ، بيروت .
- ٤٢- خصائص مذهب الأندلس النحوي من خلال القرن السابع الهجري، د. عبد القادر الهيتي، القاهرة، ١٣٩٥هـ.
- ٤٣- خطط الشام ، محمد كرد علي ، من دون .
- ٤٤- خير الكلام ، في التقصي عن أغلاط العوام، علي بن بالي القسطنطيني ، تح:د. حاتم الضامن ، عالم الكتب ، ١٩٨٧ م .
- ٤٥- إدارس في تاريخ المدارس ، النعيمي دمشقي ، تح:إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط ١ ، ١٩٩٠ م .
- ٤٦- درة الغواص في أوام الخواص ، للحريري ، تح:أبي الفضل إبراهيم . دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٥ م .
- ٤٧-
- ٤٨- الدرس النحوي في بغدادهـ. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٧ م.
- ٤٩- دواعي التطور اللغوي ، مجلة المجمع ، العدد ٨٨ .
- ٥٠- ديوان ذي الرمة ، شرح التبريزي ، مجيد طراد ، ط ٢ ، ١٩٩٦ م .
- ٥١- ديوان ذو الرمة ، تح: : عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ١ ، ٢٢٦ م .
- ٥٢- ديوان ذي الرمة ، تح: كارليل هنري هيس ، طبعة استشرافية، ١٩٩١ م
- ٥٣- ديوان و مجنون ليلي ، بتح: أحمد عبد الستار فراخ ، دار مصر للطباعة .
- ٥٤- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ، الزمخشري ، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ .
- ٥٥- رضي الدين الحنبلي التادفي، وكتابه : نور الإنسان ، رشيد عبدالرحمن صالح العبيدي ، مجلة الأستاذ» عدد ٣-
- ٥٦- ريحانة الألبا ، للشهاب الخفاجي .
- ٥٧- الزيادات على كتاب إصلاح العامة ، د. عبد العزيز الساوري ، مطبوعات مركز جمعة الماجد ، ط ١ ، ١٩٩٥ م .
- ٥٨- سهم الأحاط في وهم الألفاظ ، لابن الحنبلي ، تح:د. حاتم صالح الضامن ، عالم الكتب ، بيروت

- ٥٩- سيبويه، إمام النحاة، د. علي النجدي ناصف، عالم الكتب، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٩ م.
- ٦٠- شذرات الذهب ، لعماد الدين ابن الحنبلي ، تح: عبد القادر الأرناؤوط دار ابن كثير ، دمشق ، ١٤٠٦ هـ .
- ٦١- شرح الأشموني علي الألفية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
- ٦٢- شرح ابن عقيل علي الألفية، تح: محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، ١٩٨٥ م .
- ٦٣- شرح التسهيل لابن مالك ، تح: د. عبد الرحمن السيد ود. ومحمد بدوي المختون، دار هجر للطباعة، بالقاهرة ١٤١٠ هـ.
- ٦٤- شرح ديوان الحماسة ، للمرمزوقي (٤٢١هـ) . نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون . لجنة التأليف والترجمة والنشر. ط ٢، ١٩٦٧ م .
- ٦٥- شرح شافية ابن الحاجب ، لرضي الدين الاسترأبادي (٦٨٦هـ) . تح: الأستاذ. محمد نور الحسن وزميليه . دار الكتب العلمية ١٩٨٢ م .
- ٦٦- شرح درة الغواص للخفاجي ، رسالة علمية ، تحقيق الدكتور محمد رياض السيد كريم ، الجزء الأول .
- ٦٧- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، شرح ثعلب ، صناعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٤ م .
- ٦٨- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٣ هـ .
- ٦٩- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض ، دار الفكر - بيروت ، ١٩٨٨ م .
- ٧٠- الشوارد في اللغة ، الضغاني ، تح: مصطفى حجازي ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٣ م .
- ٧١- شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح ، لابن مالك (٦٧٢هـ) . تح: وتطبيق . محمد فؤاد عبد الباقي . عالم الكتب . (بيروت) .
- ٧٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، القلقشندي، تح: عبد القادر زكار ، وزارة الثقافة بدمشق ، ١٩٨١ .
- ٧٣- الصبح المنبي عن حثية المتنبي ، يوسف البديع ، تح: ، مصطفى السقا ، وزميليه ، دار المعارف ، ط ٣ .
- ٧٤- الصناعتين الكتابة والشعر ، لأبي هلال العسكري ، تح: علي محمد البجاوي ، و أبي الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- ٧٥- الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر للآلوسي ، شرح محمد بهجة الأثري البغدادي ، المكتبة العربية ببغداد ، المكتبة
- ٧٦- الضروري في صناعة النحو ، لابن رشد الحفيد ، تح: د. منصور علي عبد السميع ، دار الفكر العربي ، ٢٠٠٢ م .
- ٧٧- طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة .

- ٧٨- طريقة الخفاجي في التهذيب اللغوي ، للأستاذ أنيس المقدسي ، بحث منشور بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد الثالث و العشرون ، جمادى الأولى ٣٦٧ - العدد ٢ »
- ٧٩- العربية : دراسات في اللغة و اللهجات ، يوهان فك، ترجمة د. رمضان عبد التواب، الخانجي، ١٩٨٠م.
- ٨٠- عقد الخلاص في نقد كلام الخواص، لابن الحنبلي ، تح: نهاد حسوبي صالح ، مطبوع مع جهود ابن الحنبلي اللغوية ، مؤسسة الرسالة ط١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧.
- ٨١- علم اللغة العربية، د. محمود فهمي حجازي، مكتبة غريب، ١٩٩٢م.
- ٨٢- العلماء في بلاد الشام في القرن العاشر الهجري على ضوء الكواكب السائرة ، ندى صعيدي ، من الجامعة الأمريكية في بيروت .
- ٨٣- العمدة في صناعه الشعر ونقده، لابن رشيق، تح: الشيخ. محمد محي الدين عبد الحميد - ط٤، دار الجيل ١٩٧٢م.
- ٨٤- عمدة الحفاظ ، في تفسير أشرف الألفاظ ، السمين الحلبي ، تح: محمد باسل عيون السود ، دار الكتب ط١ ، ١٩٧٦ م .
- ٨٥- عيار الشعر، لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، تح: و تعليق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٨٤م.
- ٨٦- العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ، تح: د . مهدي المخزومي ، وآخر ، ط . دار الرشيد ، بغداد ، في ١٩٨٠ م .
- ٨٧- الفائق في غريب الحديث ، لآجار الله محمود الزمخشري ، اح : علي محمد البجاوي ، أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢ .
- ٨٨- الفراهيدي ، عبقرى من البصرة، د. مهدي المخزومي، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد ، ١٩٧٢ م .
- ٨٩-
- ٩٠- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري تح: مؤسسة النشر الإسلامي ، ط ، ١٤١٢هـ .
- ٩١- الفصيح ثعلب ، تح: د. عاطف مدكور ، دار المعارف .
- ٩٢- فعلت وأفعلت ، للسجستاني ، تح: د. خليل إبراهيم العطية ، دار صادر ، ط٢ ، ١٩٩٦ م.
- ٩٣- في العربية الفصحى واللحن ، د . أحمد قدور ، بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، الجزء الأول ، المجلد التاسع والستون .
- ٩٤- ، في اللحن مظاهره ومقاييسه ، د / عبد الفتاح سليم ، مكتبة الآداب .
- ٩٥- القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٣٠١هـ .
- ٩٦- الكامل في اللغة والأدب، للمبرد ، تح: أبي الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٩٧ م .
- ٩٧- كتابان في النحو ط . دار البشائر . تحقيق الدكتور الضامن ، ط١ ن ٢٠٠٤ .

- ٩٨- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٢ م.
- ٩٩- الكواكب السائرة بآعيان المائة العاشرة ، النجم الغزي ، وضع حواشيه خليل المنصور ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١ ، ١٩٩٧ م.
- ١٠٠- الكوفيون في النحو والصرف والمنهج الوصفي المعاصر، د. عبد الفتاح حموز، دار عمار، الأردن، ١٩٩٧ م.
- ١٠١- لحن العوام ، لأبي بكر الزبيدي ، تح: د. رمضان عبد التواب ، المطبعة الكمالية ، ط ١ ، ١٩٦٤
- ١٠٢- لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، د. عبد العزيز مطر ، الهيئة القومية للطباعة، ١٩٦٦ م.
- ١٠٣- لحن العامة والتطور اللغوي ، د. رمضان عبد التواب ، زهراء الشرق ، ط ٢ ، ٢٠٠٠ م.
- ١٠٤- اللحن في اللغة مظاهره ومقاييسه ، د. عبد الفتاح سليم ، مكتبة الآداب ، ط ٢ ، ٢٢٦ م.
- ١٠٥- اللحن في اللغة العربية ، د. يوسف المطوع ، جامعة الكويت .
- ١٠٦- لسان العرب ، لأبي الفضل جمال الدين بن منظور (٧١١هـ) . دار إحياء التراث العرب ، ط ١ - ١٤٠٥ هـ .
- ١٠٧- اللغة بين المعيارية والوصفية ، د. تمام حسان ، عالم الكتب ، ٢٠٠١ .
- ١٠٨- المتنبي والمشكلة اللغوية ، د. صاحب أبو جناح ، بحث منشور في مجلة المورد العراقية ، المجلد السادس ، العدد الثالث .
- ١٠٩- مجلة لغة العرب المجلد الأول العدد الأول .
- ١١٠- مجمع الأمثال ، الميداني ، تح: . محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت .
- ١١١- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لابن جني (٣٩٢هـ) . تح: على النجدي ناصف وزميليه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . ١٩٩٤ م .
- ١١٢- المدارس النحوية - د. شوقي ضيف ، دار المعارف .
- ١١٣- المدارس النحوية، د. خديجة الحديثي، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨٦ م.
- ١١٤- المدارس النحوية بين التصور والتصديق ، د. عبد الأمير محمد أمين الورد ، المكتبة العصرية ، بغداد ، ط ١ .
- ١١٥- المدخل إلى تقويم اللسان ، بتحقيق د. حاتم الضامن، مجلة المورد العراقية ، عدد ٣٨ ، لسنة ١٣٦٠ هـ .
- ١١٦- المدخل إلى تقويم اللسان لابن هشام اللخمي ، تح: د. د. حاتم الضامن ، دار البشائر ، ط ١ ، ٢٠٠٣ م .
- ١١٧- المدخل إلى تقويم اللسان لابن هشام اللخمي ، تح: مأمون بن محي الدين الجنان ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٩٩٥ م .

- ١١٨- المدخل إلى مصادر اللغة العربية ، د / محمود فهمي خجازي ، مؤسسة المختار ، ط ٢ ، ١٠٠٨ .
- ١١٩- المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي، د. محمود حسني، دار عمار، الأردن، ط ١٩٨٦، م.
- ١٢٠- مدرسة الكوفة، د. مهدي المخزومي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط ١٩٥٨، م ٢ .
- ١٢١- المدرسة النحوية في مصر والشام، د. عبد العال مكرم، دار الشروق، بيروت، ، ١٩٨٠ .
- ١٢٢- مراتب العلوم ، لابن حزم ، ضمن رسائل ابن حزم ، تح: د. إحسان عباس ، لمؤسسة العربية للدراسات والنشر .
- ١٢٣- مراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، نهضة مصر، ١٣٧٥هـ.
- ١٢٤- المزهرة في علوم اللغة وأنواعها ، للسيوطي (٩١١هـ) . شرحه وضبطه وصححه محمد أحمد جاد المولى وزميله. دار
- ١٢٥- معاني القرآن، الفراء (٢٠٧هـ) الجزء الأول تح: أحمد نجاتي ومحمد علي النجار ، والثاني تح: محمد علي النجار ، والثالث تح: د. عبد الفتاح شلبي ، ومراجعة أ. علي ناصف . مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ط ٣ ، هـ ٢٠٠١ م
- ١٢٦- مُعْجَمُ الأَدْبَاءِ ، تأليف الحموي ، ، ط - دار الكتب العلمية ، بيروت ط ١ ، سنة ١٤١١هـ - ١٩٩١ م
- ١٢٧- المعجم العربي ، نشأته وتطوره ، د. حسين نصار ، مكتبة مصر .
- ١٢٨- معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ن ، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت
- ١٢٩- معجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
- ١٣٠- مقاييس اللغة ، لأبي الحسين أحمد بن فارس (٣٩٥هـ) . تح: عبد السلام هارون . دار الجيل . ١٩٧٣ م .
- ١٣١- المغرب في ترتيب المعرب ، للمطرزي ، تح: محمود فاخوري وعبد الحميد مختار ، مكتبة أسامة ، حلب ، ط ١ ، ١٩٧٩ م .
- ١٣٢- مفردات غريب القرآن، الراغب الاصفهاني .
- ١٣٣- مناهج التصويب اللغوي ، نعمة رحيم العزاوي ، بحث منشور في مجلة المورد العراقية ، المجلد السادس ، العدد الأول .
- ١٣٤- المنقوص والممدود ، للفراء ، تح: الميمني ، دار المعارف ، ط ٣ .
- ١٣٥- المواهب الفتحة ، في علوم اللغة العربية ، للشيوخ حمزة فتح: الله .
- ١٣٦- الموفى في النحو الكوفى ، للكنفراوي ، نشر في مجلة المجمع الدمشقي ، المجلد الرابع و العشرون، ذى الحجة ٣٦٨ - العدد ٤ .
- ١٣٧- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ابن تغري بردى ، وزارة الثقافة والإرشاد ، مصر .
- ١٣٨- نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، الشيخ محمد الطنطاوي، تح: أبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل ، دار إحياء التراث العربي ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م .

- ١٣٩- نصوص من كتاب لحن العامة لأبي حاتم السجستاني ، جمع وتوثيق ودراسة ، بحث منشور في حلقتين بمجلة المجمع العلمي العراقي « السنة ٤٢٩ - العدد ٢٧ ، و السنة ٤٢٩ - العدد ٢٨ .
- ١٤٠- النقد اللغوي عند العرب حتى القرن السابع ، نعمة العزاوي ، وزارة الثقافة والفنون ، العراق ، ١٩٧٤ م .
- ١٤١- النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير (٦٠٦هـ) . تح: د. طاهر الزاوي ، و. محمود الطنحاني . المكتبة .
- ١٤٢- نور الإنسان في اشتقاق لفظ الإنسان لابن الحنبلي ، تحقيق : رشيد عبدالرحمن صالح العبيدي ، مجلة الأستاذ» عدد -٣» .
- ١٤٣- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون . تأليف إسماعيل باشا البغدادي دار الكتب العلمية
- ١٤٤- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، للسيوطي (٩١١هـ) . تح: أحمد شمس الدين . دار الكتب العلمية . ط ١ ، ١٩٩٨ م .
- ١٤٥- وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان ، تح: د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، لبنان .
- ١٤٦- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، الثعالبي ، تح: د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٣ م .